جائزة آسيا جبار للرواية 2015

سييرا دي مويرتي

جبل الموت

عبد الوهاب عيساوي

رواية

دار الساقي

مكتبة نوميديا 40
Telegram@ Numidia_Library

© دار الساقي 2016
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى، الرابطة الولائية للفكر والإبداع، الجزائر 2015
الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت 2016

ISBN 978-6-14425-888-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

بين سييّرا وعين الأسرار

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

عبد الوهاب عيساوي

سييّرا دي مويرتي
جبل الموت

دار الساقي

١

صرخ بابلو بينما كان يحدق في سماء مثقلة بالغيوم:

– ثلاث سنوات مرّت يا مانويل، أترى؟ إنها ثلاث سنوات قد مضت على سقوط برشلونة، ونحن هنا ما زلنا نجرف الثلج عن سكة الحديد بجلفا.

– لا فرق، ألم نجرفها آخر مرة في "سييّرا دي مويرتي"؟

رمى المجرفة من يده ونظر إليّ بغضب:

– اللعنة على جميع الشيوعيين أمثالك. الدفاع عن إسبانيا بالنسبة لك كالحرص على جيب السيد كابوش.

– لم أقصد هذا!

وحين همّ بالكلام ربّتت يدٌ على كتفه، ثم امتدت حاملةً المجرفة. التفتُّ، كان الصبائحي أحمد خلفه:

– من فضلك أكمل عملك. لحظات وسيكون الضابط غرافال هنا.

لم تكن المرة الوحيدة التي يضجّ فيها بابلو. طالما امتدّ صراخه بالسّباب إلى جميع من كان حوله، ملوِّحاً بيديه، مثيراً الحراس

العرب. وبالرغم من أن أغلبهم لم يكن ليفهم لهجته، لكن تعابير يديه توحي بكل شيء. يقتربون منه، ثم لا يلبثون أن يبتعدوا حين يأمرهم الرئيس بذلك. كان الصبائحي[1] أحمد يعرف جزءاً مما حدث في "سيّيرا دي مويرتي"، وكما يدرك حجم غضب غرافال عندما يكتشف الفوضى التي يحدثها بابلو، حتماً لن يتجاوزها، وستكون أيامه القادمة في سجن كافارولي.

عند نهاية العمل، ترتفع صفارة الحارس. نصطفّ حاملين معاولنا ونسير في خطٍّ مستقيم، يحوطنا الحراس العرب من كل جهة، ويتبعنا الرئيس على فرسه. بعد خطوات ترتفع صافرة القطار معلنةً عن زيارته الثالثة والأخيرة لهذا الأسبوع.

وبالرغم من أن إزاحة الثلوج ليست من عملنا، ولكن الإدارة كانت تضطر إلى ذلك أحياناً، عندما تتكاثف الثلوج عبر امتداد الطريق الذي يربط المدينة بالمعتقل، وفوق سكة الحديد، وأحياناً ننزل إلى المدينة الصغيرة، ننظف الشارع الرئيسي، انطلاقاً من حامية الصبائحية، مروراً بدار البلدية وحتى عند مكتب البريد.

في مسيرنا كنت أفرك يدَيّ. امتدت البقع البنفسجية عبرهما. البرد جعلهما رخوتين بطريقة مفزعة، ومنحهما لوناً جعلني أقلق. أسرّع في العملية، وأنفخ فيهما بقوة أكثر، وهكذا، وبعد دقائق، يعود إليهما لونهما الطبيعي، وينزاح خوفي أنني قد أضطر في يوم ما إلى بترهما. للحظات من المسير لا أكاد أفكر في شيء، ننعطف يميناً ثم يساراً، نتجاوز الأبنية المتفرقة، ونقطع الشارع الرئيسي مبتعدين عن

١ خيّال فرنسي من أصول إفريقية.

سكة الحديد، لتبدو لنا الربوة، حيث تنتصب خيامنا، كما ويتجلّى لنا الطريق المؤدي إليها خالياً من أي شيء، ماعدا بعض الجنود القادمين من هناك. نحثّ المسير تحت صراخ الحراس، نسرع إلى أن تتضح الأسلاك الشائكة المحيطة بالخيام، أدرك حينها أنني قد وصلت إلى "عين الأسرار".

بابلو لا يزال يسير أمامي، أسمعه يهمهم بصوتٍ خفيض، لا أفهم إلا الجملة اللعينة التي ظل يكررها طوال الشهور التي قضيناها معاً في معتقل "فارني دارياج". حمل أيضاً هذه اللعنة معه هنا إلى جلفا. رجوته أن يتجاوزها، على الأقل إلى حين خروجنا، وفي كل يوم يثبت لي العكس. "سيّيرا دي مويرتي" كانت لعنة العديد غيرنا، ممن كانوا هنا وربما بعض أولئك الذين خلفناهم في الجنوب الفرنسي. بعض الأناركيين كانوا أيضاً معنا ذاك اليوم. أذكر وجوههم الشاحبة عندما وقفوا عند باب المعتقل وهم يودّعوننا ذلك اليوم في "فارني دارياج". كان يوماً لا يمكن أن يُمحى من الذاكرة. حتى بابلو بدا مختلفاً، أكثر تفاؤلاً عندما عرف أننا ذاهبون إلى إفريقيا، اعتقد أنها هي التي قرأ عنها في مغامرات الرحالة حيث يصطادون الفهود والفيلة، ولكنه لم يلبث أن صمت عندما انفجر شابٌّ فرنسي بيننا بالبكاء وهو يقول: "سوف نموت في مستعمرات مليئة بالأمراض والجوع. إنهم لم يرسلونا إلى هناك إلا من أجل الموت. لقد قال بعض المعتقلين ذلك في رسائلهم. لقد ذهبوا إلى هناك ولم يعودوا. لا أريد أن أغادر فارني".

هل كانت الثالثة أم الرابعة؟ لم أعد أذكر جيداً كل التفاصيل، بدأت

تغيب وتتقلص في الذاكرة، حتى عدد أولئك الذين جمعوهم معنا، أنا وبابلو وبعض الإسبان الآخرين والبولونيين. قالوا لنا: "عليكم أن تحزموا أمتعتكم، ستغادرون فارني". لم نجرؤ على السؤال، وصمتنا في المدة التي حزمنا فيها أمتعتنا، وقبل أن نخرجها من الغرف استدعونا فرادى وجماعات لأخذ البصمات في مكتب الإدارة، وهكذا بعد لحظات كنت أسحب أمتعتي وأقف مع البقية عند بوابة المعتقل. اقتربت من بابلو وهمست: "ليس عليك أن تضجّ أو أن تفعل أي شيء، ما عدا أن تفتح ذراعيك لأولئك البائسين مثلك". كانوا قد اقتربوا وبدأ تبادل العناق إلى أن وصلت الشاحنات، أُصعدنا على متنها، وما لبثت أن انطلقت مسرعةً إلى الجنوب، وبقيت الأيدي تلوّح لنا من بعيد، والدموع تنساب من عيون الأصدقاء القدامى. بعض الوجوه كان ذلك آخر وداع بالنسبة لنا، أما بعضها الآخر فقد التقيتها، ولكن بعيداً عن أوروبا بآلاف الكيلومترات.

لم أحبّ يوماً أن أقارن بين "فارني دارياج" و"عين الأسرار". أعرف أن فارني كان جنة المعتقلين، ولكن الأمر بدا لي مختلفاً. ربوة المعتقل علّمتني الكثير، وحتى مدينة جلفا الصغيرة تراءت لي بشكلٍ آخر، ليس مثلما رآها البقية، وهكذا أردت أن أعرف العرب وحدث ما حدث في أيام الآحاد الغريبة.

لا يمكن أيضاً أن أقارن ما بين جبال "سيّيرا دي مويرتي" والجبال الشرقية هناك، خلف ربوة "عين الأسرار". قد يبدو الأمر غريباً لو فكرت في الأمر، بالرغم من أن بعض اليهود البولونيين كانوا يجلسون لساعات يراقبون سفح الجبل الشرقي، حيث تمتد مقبرة المسلمين

أسفله، بقبورها المتواضعة، والبناء الغريب الذي كان هناك.

في إحدى المرّات سألت عنها اليهودي المسؤول عن المطبخ، كان أكثرهم جلوساً وتأملاً. نظر إليّ بتمعّن وقال:

– داخل البناء ضريح المرابو، إنه قديس المسلمين.

استغربت أن الكلمة كانت تعني أيضا الخيمة، وعاد اليهودي إلى صمته يراقب مجموعة من الناس بدوا من بعيد وكأنهم يقبرون مسلماً.

نكهة الحياة تختلف من مكانٍ إلى آخر، وأعتقد أن نكهة الموت أيضاً، وأن للمكان وجهة نظر فيها. في الجبهة فكّرنا بالموت ولكن بشجاعة، ليس مثل هذه المرة في جلفا، الموت عنى أشياء أخرى أكثر رهبةً. لا أدري بالضبط كيف كان ذلك يفرّ بسرعة بينما استطعت أن أقتنص الشعور الذي يدهمني أحياناً، وأنا متمدد داخل الخندق، وتُضاء السماء فوق رأسي بالرصاص، ثم لا تلبث أن تُطفأ الأنوار من الجهتين، ونسحب موتانا، بكل بساطة نخرجهم من الخنادق، ندفنهم دون شواهد واضحة، ثم نجتمع في الخيام، ندخن سجائرنا ونشرب، نلعب الورق لأيام بعدها دون أن يحدث أي شيء. ربما كان ذلك منطق الحرب، ولكني أراه اليوم محض جنون، وأبدو غير مصدّق أنه قد حدث بالفعل. إنها الحرب، وفيها لا يستطيع الإنسان المحافظة على إنسانيته، إنه يقتل ليبقى، لينقذ نفسه وجنوده، ليعيش بعدها ويندم على أشياء كثيرة ارتكبها وأخرى لم يرتكبها. هذا ربما ما كانت سيّيرا تودّ قوله، أو ربما ذلك ما كنت أؤمن به في تلك الأيام، غير أن الأيام التي تلتها محت كل شيء وجعلتني أقرب إلى لا تصديق

ما حدث، وأننا الآن خسرنا كل شيء، الأرض والعائلة، وأصبحنا مطاردين من مكان إلى آخر، وأضحت معتقلات أوروبا تضيق بنا، ثم رُمينا دفعةً واحدة إلى إفريقيا. كان بابلو محقاً عندما رفض كل الأحضان المودِّعة عند باب معتقل فارني، تجاوزها مسرعاً وجلس عند العتبة، واضعاً وجهه بين يديه، صامتاً وهو يصعد إلى الشاحنة، وما إن انطلقت حتى انفجر بالبكاء، مثل ذلك الشاب الفرنسي، ونظر إليّ بوجهه القاسي المتعب والمخطط بالدموع:

- لماذا يحدث لنا كل هذا؟

- إنها ضريبة لكلمة "لا".

- لقد خدعونا وقالوا إننا معكم، ثم ها هم يأخذوننا إلى إفريقيا.

لم أستطع يومها أن أفسّر له ما كان الكل يعرفه، وما كنا أيضا نخجل منه، إنها اللعنة التي أصابتنا وجعلتنا نتقاتل داخل برشلونة، متناسين أن فرانكو كان يقترب كل يوم، ثم ما لبث أن طردنا منها. الآن يستطيع الفرنسيون أن يسخروا منا ويضحكوا حتى الضجيج، ويقولوا: "ألم يكن عليكم أن تتفقوا، ومن ثم تدّعون أنكم تدافعون عن وطنكم ضد الفاشية. تستحقون أن تُرمَوا مثل كلابٍ ضالة إلى إفريقيا".

بالتأكيد لم يسمع بابلو ما دار في رأسي من أفكار، كان سيوغل في حزنه وألمه حين يزيد وعيه بالحقيقة. الوهم أحياناً يجعل الإنسان سعيداً ولو للحظات، وكان علينا، نحن الجمهوريين المبعدين، أن نحلم على الأقل بالعودة، مع أن ذلك بدأ في التضاؤل، وأوشك أن ينعدم ونحن نقترب من العام الأول داخل خيامنا في المعتقل بجلفا.

كنت أرى "عين الأسرار" تقترب منا، أو ربما نحن الذين كنا

نقترب منها، إلى أن صاح من خلفنا رئيس الحرس، أن نتنحّى جانباً، وهذا ما كان الحراس يحاولونه فيما بعد، وبدأ قسمٌ منهم يدفعنا جانباً لنفسح الطريق للسيارة التي مرت بسرعة، نافثةً الدخان في وجوهنا، وعدنا نرقب صعودها الحثيث إلى المرتفع، ثم وهي تدخل من البوابة وتتوقف عند مبنى الإدارة، ولم تمضِ إلا لحظات حتى كنا نقتفي أثرها، واقفين عند البوابة منتظرين لحاق بقية الحراس بنا. لا أدري كم تكرر ذلك الموقف، ولكن بعض الحراس العرب كانوا دائماً يختلقون الأعذار من أجل الذهاب إلى جلفا، والعودة بدون المرور على الإدارة. والرئيس كان يعرف ما يحدث بالضبط ما بين المعتقلين والحراس العرب، ولكن يغضّ الطرف عنهم، على الأقل في غياب الجنود الفرنسيين والضابط غرافال، وفي وجودهم لا يستطيع إلا أن ينفذ الأوامر. وهكذا ننتظر لدقائق عودة الحراس لندخل المعتقل، وكل مجموعة تسير إلى خيمتها.

اعتقدت أول مرة رفعت فيها رأسي ورأيت البوابة أنها كانت هناك في زيّ أحد الحراس. فركت عينَيّ عدة مرات، ولكنها لم تكن هناك. هواجس تشتعل في رأسي، تعيدني إلى تلك الأمسية الجميلة في قاعة المسرح في برشلونة. كان العرض الأول لفيديليو، الأوبرا الوحيدة لبتهوفن، وكانت زوجتي إلى يميني، مبتهجة، وهي ترى ليونورا، زوجة البطل المسجون، تقف متنكرةً في ثياب رجل من أجل التحايل على الحراس لتحرير زوجها. بدت لي زوجتي ذلك اليوم في ثوب أحد الحراس، شككت في البداية ولكن صورتها ظلت ترافقني في المعتقل ثم وأنا أقرأ رسائلها، وحتى بعد رحيلي عن جلفا.

٢

إنها طريق "ريفيسالت"، همس لي أحد المعتقلين الفرنسيين، ولم أعرف ما عنت بالضبط لي كلماته، إذ كانت المرة الأولى التي أسير فيها عبر ذلك الطريق، الذي شقّته الشاحنة في البداية ببطء، ثم ما لبثت أن أسرعت مخلفةً البوابة والوجوه الشاحبة، وأيديهم المُلوِّحة. التفت إليّ المعتقل الفرنسي، وتأملته مليّاً، لم يبدُ لي فرنسيا، كان وجهه أميل إلى الوجوه الآسيوية، أكثر حمرةً، وفكرت إنْ كان ما همس به يمكن أن يعني له أي شيء، ولكنه كان ساهما يتأمل الغابة الشاحبة التي ولجتها الشاحنة، ثم عاد بوجهه إلي وأردف:

– نحن متجهون إلى الجنوب.

– وما الجديد، أعرف أنها إفريقيا.

– إنها مختلفة، هناك الصحراء حيث الله قريب جدّاً من البشر.

ربما لم يكن المكان مناسباً لأن أتعرف على كورسكي، كما عرّف عن نفسه، ولكن طريقته التي تكلم بها غريبة على أي أوروبي، أكثر قرباً من الكتاب المقدس، وكأنه يقرأ منه كل ليلة، يقتبس أحياناً منه مقاطع، يتلوها همساً، أو يغمض عينيه وكأنه

يصلي في قلبه. شعرت للحظات أننا نسير ببركة هذا الكاهن، ولكن الحرب جعلتني أكره كل الكنائس، وألعن أولئك القساوسة الكاثوليك الذين لم يفكروا للحظة بنا، وبينما كنا نموت من أجلهم في الجبهة كانوا يلعنوننا في مجلة **الديلي ميل**، ولكنّي طردت كل الأفكار من رأسي ونحن نتجاوز الغابة إلى التلال المجاورة لها، غير أن المشهد عاد مرةً أخرى يستفزني وأنا أقارن ما بين أولئك القساوسة وبين الذين وقفوا في وجه نابليون بصلبانهم الخشبية. لم أستطع أن أتجاوز ذلك الحدّ من المقارنات، كان كل شيء واضحاً، عندما قالوا لنا: "أنتم الشيوعيون تخليتم عن الله فتخلّى عنكم"، وهكذا لم أجد تفسيراً لوجود هذا الكورسكي بيننا. ربّتُّ على كتفه، ثم توقفت ولم أجرؤ على سؤاله.

كان كورسكي يهودياً بولونياً، ابناً لرابي عاش في وارسو، ولكنه لم يلبث أن هاجر إلى فرنسا ودخلها قبل الحرب الكبرى بسنتين، ولأنه يحسن اللغتين الألمانية والفرنسية فقد عمل مترجماً لجريدة **فيكتوريا**، ومع دخول هتلر إلى فرنسا، طارده الجستابو. وفي ليلة وبينما كان نائماً في غرفة في أحد الفنادق حُطِّم الباب، استيقظ مفزوعاً على وقع الضجيج، ولم ينتبه إلا والحديد في يديه. كان يعتقد أنهم من الجستابو، واتضح أنها الشرطة الفرنسية. لم يفهم في البداية، ولكنه اكتشف أنه بسبب مقال ترجمه للجريدة. مدّ يده باستسلام للحديد، قادوه إلى معتقل قريب من باريس، وبعد أيام شُحن مع مجموعةٍ أخرى إلى فارني. يتذكر كل التفاصيل وكأنه كان يعيها منذ آلاف السنين، أو كأن كتابه المقدس وحروفه اليديشية الغريبة نبوءات

مستقبلية لنهاية العالم، أو ربما لبدايته؛ الصحراء التي رددها أمامي مثل آية أو تعويذة يطرد بها الأرواح الشريرة وتجعله قريباً من الله.

طريق "ريفيسالت" لم يرد الانتهاء تلك الليلة، يزداد طولاً وتتباطأ الشاحنة القديمة بنا، مخلفات الحروب، تحملنا عبر طريق سيئة. غابت الوجوه البائسة في عمقٍ سحيقٍ من الظلمة، وجعلتُ أسمع رجْعَ الأنفاس وهي تُخرج دخان الحرائق من صدورها. لم يتكلم أحد، وأشعل آخر سيجارةً قربي، نفث دخانها ورأيت الجمرة تزداد اتقاداً وهو يسحب نفساً جديداً منها. طلبتُ منه واحدة وأشعلتها، سحبت أنا الآخر نفساً ومررتها إلى بابلو الذي كان قربي، أمسكها وسحب الدخان منها بعصبية تجلّت في ضوئها الذي اشتعل أكثر من المرات السابقة، ثم أعادها إلي. فكّرت في كل التفاصيل التي خلفناها في برشلونة: السجائر الثمينة، الويسكي، العروض المسرحية... كل شيء تبخّر. لم أنتبه إلى أنني كنت أفكر بصوتٍ عالٍ إلاّ حين فاجأني بابلو:

– فعلاً كل شيء تبخّر في سيّيرا.

– سنعود يوماً ما.

– بل يجب أن نعود.

رميت عقب السيجارة من الشاحنة، وهممت بالوقوف متناسياً الأغلال التي في يدي، وأوشكت أن أسقط لولا يده التي أسندتني وهو يضيف:

– أتعتقد فعلاً أننا نستطيع العودة؟

– أتشكّ في ذلك؟

- لا شيء يوحي بذلك يا مانويل. أين نحن الآن، ومتى سنخرج؟ ومسيرنا إلى إفريقيا، هل سننجو منه؟ لا شيء يوحي بأننا سنعود. ألا يبدو كل شيء واضحاً! إنهم يريدون قتلنا ليس إلا.

- الأمر ليس هكذا.

- إذن كيف؟

- إنها مسألة وقت.

هل كنت مؤمناً بما قلت لبابلو؟ مستحيل، كان يحتاج لذلك الوهم، وربما كنت مثله أريد أن أصدق ما تفوهت به من أكاذيب: "إننا سنعود، وسنقتل الطاغية، وستصبح إسبانيا مثلما كانت، وسنزور كل ميادين مصارعة الثيران، وأعدك أن أدفع لك ثمن التذكرة، وإذا شئت أيضاً ثمن المراهنة، وربما سنأخذ ابن الرابي معنا". كنت وبابلو والبقية من الجمهوريين نحتاج أن نصدّق بعض الأحجيات كي لا نموت بسرعة، والطريق إلى "ريفيسالت" لا تودّ أن تنجلي إلا بعد أن تُنهك مخيلاتنا بالكذب على أنفسنا. اتّكأت عليه وفكّرت في أن أغفو قليلاً، ولكنّ توقّف الشاحنة وصراخ الحراس جعلاني أقطع الغفوة.

تعالت الصرخات من حولنا، وأشعل الحارس مصباحاً يدوياً، وقام البقية بإنزالنا من الشاحنة. صرخ أحدهم بي حين أبطأت النزول، وامتدّ صراخه إلى البقية، وفي لحظات كنا مصطفّين في مكانٍ مثل محطةٍ قديمة. همست لكورسكي الذي كان يتقدّمني:

- هل هذه ريفيسالت؟

- لا، إنها مجرد محطة قديمة، لا أذكر أني رأيتها من قبل.

– إذن سنقضي الليلة هنا؟
– أجل.
مع أن كل كلماتنا كانت مجرد همس، إلا أن الحارس انتبه إلينا، وصرخ بي ثم تقدم مسرعاً وامتدت رجله تركلني. صمتُّ ولم أنبس بكلمة، لم أرد أن أُحدث أيَّ جلبة، لأنه كان موقفاً عادياً تكرر عدة مرات في فارني. تتنزّه عبر الساحة في سكينة، وللحظة تُفاجأ بالقدم الخشنة وهي تقذفك لمسافة إلى الأمام. فكّرت في بابلو للحظات، ورفعت رأسي محاولاً أن أكتشف مكانه، ولكن الضوء الضئيل المنبعث من المحطة لم يسعفني، وفقدته لدقائق ثم لمحته في مقدمة الصف، ثم وهو يلج غرفةً بدت للوهلة الأولى مثل مخزنٍ قديمٍ لقطع الغيار، تمددنا فيها بعد أن نزعوا عنا الأغلال، ودخل المُلازمُ المسؤول عن الحرس، تأمل الوجوه، وأعاد النداء على أسمائنا، ثم خرج وعاد بعد لحظات ومعه بقية الحرس ووزعوا علينا الأكل.
كانت قد مرّت سنة على ما حدث في طريق "ريفيسالت"، ولكنها تبدو مثل قصةٍ خرافية، أو حلمٍ في منتصف الليل، أو ربما آية من الآيات اليديشية التي تغنّى بها كُورسكي، وهو يراقب المجحودة، تلك المقبرة الغريبة، التي يهبط عليها المسلمون مثل طيور أسطورية ببرانسهم البيض. كان البولوني أقربنا إلى عالمها، ووددت أن أكون أقرب منه. واستطاع أن يفوز بيوم السبت لأنه كان يهودياً، واخترت أنا الأحد، لأن أوراقي قالت أني كاثوليكي، وشاءت فيما بعد إرادة كابوش أن نكون الأقرب إلى عائلته، ليس بوصفنا أصدقاء، ولكن معلّمين لابنه الوحيد.

عندما وقف السيد كابوش عند باب الإدارة، لم يكن لوحده، وقف إلى جانبه الضابط غرافال وسيدان آخران نزلا لتوهما من السيارة، وللحظات وقف الجميع في صفوف ينتظرون خطبة المدير المعتادة بعد انطلاق صفارة الاستدعاء.

الجميع قد رأى السيدين من قبل، وحتى السيارة شعروا بألفتها، الرجل الأشقر ممثل القنصل الإنكليزي ومساعده، أتوا قبل ثلاثة أشهر، واصطحبوا معهم بعض المعتقلين، وهاهم يعودون. كنت أجزم أن المعتقلين كانوا في كل ساعة يرفعون رؤوسهم يراقبون الطريق الرابط ما بين المدينة والمعتقل، يبحثون عن السيارة، ثم يرونها ثانيةً، تشتعل آمالهم في الخروج من هنا إلى أماكن أخرى، يفرّون بعيداً عن جلفا، البرد والجوع، وحتى العمل الشاق في ورشات السيد كابوش، التي تتجدّد في كل يوم، مع شريك جديد، بدأت بمصنع متواضع للآجرّ، وامتدت إلى أعمال الحفر وتعبيد الطرقات، وحتى إلى جني الحلفاء، التي سُمح لنا بحمل القليل منها لصنع الأحذية ولكنه لم يكن كافياً، لذا ظلّ وجهي معلّقاً بالوجوه للحظات، ثم ارتفع صوت غرافال وهو يأمر الصفوف الإسبانية أن تعود إلى الخيام.

في الخيمة احتجّ بابلو:

- إنهم يعلمون أننا الوحيدون الذين نملك أكثر المبرّرات للعودة!
- ومع ذلك يتجاهلوننا دائماً.
- ولكن لماذا؟ ألم يقدموا صداقتهم من البداية عند عتبات فارني؟
- أما زلت تذكر تلك الأيام! نحن اليوم في جلفا.

كنت أراقب عينَي السيد كابوش في الاجتماع، بدا متضايقاً

من اللجنة، كنت أعرف جزءاً من طباعه حين يُثار، لا يستطيع أن يتكلم بطريقة جيدة، وقف وأمر الضابط غرافال بترتيب كل شيء والنداء على أسماء أولئك الذين سيغادرون المعتقل، كانوا عشرة وكلهم فرنسيون، سلّموا لهم مجموعة من الأوراق ثم عادوا إلى الخيام، وضّبوا أمتعتهم ووقفوا عند البوابة، سار البعض منا ليودّعهم، بينما كانت الشاحنة تنحدر من ربوة "عين الأسرار". وقف المدير متضايقاً، وهو يرى عشرةً من العمال يغادرون ببساطة. كنت أفهم منطقه، بدا واضحاً أكثر من الضابط غرافال، لطالما أراد تقاعداً مريحاً بعد سنوات الخدمة، لذا تضايق من طلبات القنصل وهي تحرمه كل شهر مجموعةً من العمال، وكونه يعرف أنهم ذاهبون إلى الشركة الإنجليزية ذلك ما كان يجعله غاضباً، ينظر إلى الوجوه بازدراء، ويغادر مسرعاً قاصداً فيلته في حي بال أومبراج.

يسألني بابلو عن المنطق الذي تختار به اللجنة الإنجليزية العمال، وأجدني غير مستوعب لأي شيء، وإن كان الأمر متعلقاً بمنطق الصداقات بين الدول، لمّا أخذت اللجنة معها ثلاثةً من الألمان في المرة السابقة. مزيجٌ من التناقض والعبث كان يُسيّر الأوامر في المعتقل، ما عدا السيد كابوش ربما كان الوحيد في إفريقيا الذي يعرف ما يريد. أما غرافال، ذلك الملعون - هكذا يناديه البولوني منذ اليوم الأول الذي رآه فيه حاملاً السوط بيده، يضرب به في الهواء مهدِّداً العمال الذين قدموا في الفوج الذي قبلنا -، فقد بدا حذراً معنا.

قال لي كورسكي الذي تكلّم مثل عرّاف يومها:

– إنهم يخشون ثورتكم أنتم الذين كنتم تقاتلون في إسبانيا، لأنكم تعرفون كيف تستعملون السلاح، وحتى أشياء أخرى في شخصياتكم بدت لهم أشد خطراً من معرفتكم الحربية، لذا يجب أن تحذروا أنتم أيضاً.

هكذا يفكّر وفي كل يوم يفاجئني بأشياء لم أتوقعها منه، وحتى بعد سنوات، عندما افترقنا، فاجأني للمرة الأخيرة، عندما رفعت سماعة الهاتف لأسأل عنه، كان قد عبر إلى الضفة الأخرى، حيث عالمه التوراتي القديم.

٣

أفيق قبل أن يطلع النهار، أجد الموقد مطفأ، والبرد يثقب جسدي مثل إبر حادة. ألتفّ بغطائي مثل شرنقة، وأتأمل حدود الخيمة، وبقية المعتقلين، بابلو، والآخرين في الجهة الثانية. يفاجئني هتاف الفلاحين وهم يودعوننا في الطريق إلى سيّيرا. كان الثلج يهطل يومها، ولكنهم مع ذلك قطعوا مسافات لكي يودعونا، حملوا صُرراً صغيرةً زوّدونا بها، عانقونا ثم عادوا عندما أخفتنا المنعطفات. كانت نفسها وجوه الفقراء في مدينة جلفا، القرية المحتمية داخل السور، وفي أول عبور إلى هناك لاحظت أنها لم تكن تختلف كثيراً عن التي في إسبانيا، وجوه عربية قديمة التفاصيل، أغلبهم من الفقراء؛ إلا أن النظرة لم تكن لتحمل معها إلا الرضا. يمرّون بنا ونحن ننظف الطريق عند مدخل البلدية، يحدقون بنا قليلاً. بعض الأحيان يتفوهون بكلمات ويواصلون طريقهم. لم يمهلهم كورسكي يومها وأرسل خلفهم أيضاً جملته. في المساء سألته عمّا حدث فقال إنها مجرد تحية. واكتشفت أيضاً يومها أن اليهود كانوا أقرب إلى العرب منا في عاداتهم اليومية، وحتى في الوجوه. كنت أعرف أنهم ينحدرون من نفس الجدّ، ولكن

بعض الأشياء كانت لتغيب في خضم الأحداث.

بعد أن يفيق البقية، تُشعَل النار، وللنار قصة، إذ لم يُسمح لنا بإشعالها إلا منذ ثلاثة شهر، كنا نضطر حينها إلى الانتظار عند باب المطبخ، توزَّع أكواب القهوة الباردة، وتنطلق اللعنات والسباب من كل جهة، مما يجعل الحراس في استعداد دائما لثورة صباحية، وحين اكتشف مدير المعتقل أن النار ستؤثر على مزاج عماله سمح لنا بإشعالها.

في المساء نخرج إلى حدود المعتقل تحت الحراسة باحثين عن الحطب، وفي الصباح تبدأ محاولات إشعال النار. أنحني على الكومة التي بلّلها الجليد، أمسح عنها بقاياه، وتأبى النار أن تشتعل لأكثر من ساعة من المحاولات الفاشلة، أتعب منها ويتولى بابلو الأمر عني وللحظات تشتعل. يقهقه وينظر إلي:

– أيها الفاشل، كيف كنت رئيس فرقة في الحرب، ولا تعرف كيف تشعل النار؟

– لأن إشعال النار وظيفة الجنود.

– بين الأناركيين لم يكن هنالك فرْق بين الضابط والجندي.

– في الأماكن السيئة فقط لا يوجد فرق.

– ماذا تقصد؟

– كنت أمزح فقط.

"عليك أن تتأقلم كنت"، أقول لنفسي دائماً، "وعليك أن تستفيد من الجميع، وأن تكسب الجميع، عدوك وصديقك". ومنذ البداية كسبت صداقة رئيس الحراس العرب الصبائحي أحمد، كان في

نهاية الأربعينات من عمره، طويلاً قاسي الملامح، ذا لحية وعمامة لا يتخلّى أبداً عنهما، إضافةً إلى البرنس. لم يكن يسكن في مدينة جلفا، لكنه يذهب دائماً إليها. قال لي إن له زوجة وعشرة أولاد، وإنه يسكن خارج سور المدينة، بعد أن جمعتهم السلطة الفرنسية ليكون جميع البدو تحت ناظرها، وأردف أن أجرته ضئيلة جداً، لذا اضطرّ وبقية الحراس للاشتراك في السوق السوداء مع بعض من المعتقلين، كانوا يُدخلون السجائر والأكل وأحياناً الخمر. يتغاضى عنهم الحراس ويأخذون نسبة عن ذلك. وهو كان مثل البقية، يُدخل بعض السلع معه، ولكنه يرفض إذا تعلق الأمر بالخمر، وهو الذي يشرب بشكل يومي - تلك أيضاً من الأشياء التي لم أكن لأفهمها في العرب. في الأيام الأولى، عندما تعرّفت على أحمد، أطلعني على سرّ القهوة التي ظللت طوال الأشهر التي تلتها أعدّها بالطريقة التي شرحها لي، ثم ما لبثت أن انتشرت في كامل المعتقل، وبدا لي أن بابلو أصبح أيضاً أحسن مني في تحضيرها: يمسك بِنُوى البلح، يرميها في الجمر للحظات ثم يسحبها ويهرسها داخل آنية حديدية، ثم يغليها في الماء، دقائق وتنضج قهوة على طريقة الصبائحية، وكانت من الأشياء التي جعلتني أحترم أحمد، حتى ذلك اليوم الذي رُفع فيه السلاح في وجوهنا، أوشكنا أن ننتهي، ولولا بعض الأشياء الغامضة التي حدثت لكنا اليوم موزَّعين على مقابر جلفا.

ربّت بابلو على كتفي ومدّ لي كوب القهوة، عندما سهمت أراقب باب العيادة، حيث كان يقف الطبيب بيير، يراقب الخيام وينفث في سيجارته المفضلة. كان بيير يدخن "غولواز"، يعطيني أحياناً

بعضها، نتقاسم أنفاسها في الخيمة مع بقية من القهوة الصباحية. حملت الكوب وأشعلت السيجارة، وجعلت أراقب الطبيب. ما الذي يجعل شخصاً مثله يبقى هنا؟ شاب في بداية حياته، يترك المدن الكبيرة المليئة بالمتع، ويقضي أغلب وقته في صحراء باردة، ليس فيها إلا الجنود ونحن!... انطلقت في تلك اللحظة صافرة المناداة على العمل، ووجدتني أتدثّر بمعطفي الجلدي وأخرج مسرعاً إلى العيادة نافثاً الدخان مثل قاطرة قديمة. وخرج في إثري بابلو إلى حيث اجتمع البقية في انتظاره إلى مصنع الآجر. أما العجوز الذي كان يكحّ طوال الليل فقد أعفي من العمل منذ اليوم الأول الذي وصل فيه إلى المعتقل. اعتقد الجميع أنه لن يلبث ويموت، ولكنه تحمّل كل الأيام الباردة التي وصلنا فيها، ثم دخل الصيف، وقلنا حتماً سيموت، لن يحتمل الحر، وفي كل أزمة يفاجئنا بتحمله. ذات يوم قال لي بابلو مازحاً وهو يحمل مخدة في يده:

- اللعنة على هذا العجوز، إنه يستفزني بتمسكه بالحياة. ما رأيك لو... وضحك غامزاً.

اعتقدت أنه أراد بالفعل قتله، وتجلّت لي ملامحه بالفعل تريد ذلك، وجهه امتزج بإرادة جدية وأخرى هزلية لم أفهمها، ثم صرخ ضاحكاً من تعابير وجهي ورمى المخدة بعيداً.

حالات النزق التي مرّ بها، سواء في فارني أو في بداية مكوثنا في "عين الأسرار"، جعلتني أعتقد أنه سيفكّر في القتل ببساطة. مجموعة من الأحلام كانت تسكننا ثم للحظة سقط كل شيء، وكل الأصدقاء الذين كنا نؤجلهم لمثل هذه الأيام اختفوا، وظهر آخرون

لم نعتقد أنهم سيفكرون بنا. وكان للبريد قصة أخرى عندما وصل ذلك المساء.

غرفة باردة ومظلمة على طريق "ريفيسالت"، ومجموعة من المعتقلين، تتلاحق أنفاسهم وهم يتكوّمون بها، ثم تنطلق الأغاني فجأةً، ينتبه لها الحراس، يشعلون الأضواء ويدخلون الواحد تلو الآخر. هل كنا نعرف الأغنية؟ لم تكن الفرقة الدولية وحدها تنشد الأغنية، الجميع يعرفها، حتى أولئك الذين لم يشاركوا في الحرب معنا، طالما سمعوها في "فارني دارياج"، في الحفلات وحتى في بعض أوقات العمل، حين يتمدد الملل أو الحزن بين الجميع ترتفع الألحان بأصواتهم مجتمعين، وها هي الآن مرة أخرى تبدّد لحظات اليأس الذي تسرّب إلينا، تبتسم الوجوه بعد أن كانت منقبضة، ترتخي وهي تعيد ترنيمات اللحن. يحاول الحراس بصراخهم أن يتجاوزوا أصواتنا ولكنهم يفشلون ثم لا يلبثون أن يركنوا إلى الصمت ويدَعوا رجع الأصوات يندفع خارج الغرفة، يفرّون إلى هناك ويغلقون الأبواب خلفهم.

لم يمهلنا ليلتها الضوء كثيراً، إذ تسرب عبر النافذة الوحيدة للغرفة، ثم فُتح الباب ودخل الملازم وأخذ يتفرّس في الوجوه التي تحدّته بالغناء، بدا وكأنه لم ينم الليل كله، سحب سيجارة من جيبه، أشعلها وعاد يتأمل الوجوه: "تغنون أيها الكلاب! سترون إفريقيا قريباً، ويمكنكم مواصلة الغناء"، وأمر الحراس أن يخرجونا من هناك. كنا لا نزال نفرك أعيننا عندما تقدم الحراس، وبدأت الركلات تتوزع علينا. وقفنا مسرعين، واصطففنا في طابور ثم سرنا مغادرين الغرفة،

مسافة قصيرة عبر رواقٍ واطئ، وانفرجت أمامنا المحطة.

لم أعد أذكر كم قضينا هناك من الوقت، عندما سمعنا صفير القطار، ثم رأيناه يقترب، ضئيلاً في البداية، ثم وهو يقترب. اهتزت الأرض من تحت رجلي. خلفي جلس كورسكي، الذي سمعته يتكلم مع أحد المقاتلين من الفرقة الدولية. لم ألتقِ ذلك الشاب في الحرب، قال عنه البولوني في المساء نفسه إنه روسي، كان طالباً في باريس، والتحق بالحرب في بدايتها، منضمّاً إلى الفرقة الدولية هناك، قاتل في مدريد، وبعد أن دخلها فرانكو فرّ مع بعض من نجا من فرقته، وعبروا الحدود الفرنسية مع العديد من الإسبان، واكتشف بالصدفة أنه في فارني، ثم ها هو يسير إلى إفريقيا. كان البولوني يبتسم وهو يحاوره، وكأنه يعرفه منذ سنوات. أومأت له أن يقف، لأن الحارس ينظر تجاهه ثم بدأ في النداء على المعتقلين بأسمائهم من أجل أن يصعدوا إلى القطار. كانت الأغلال لا تزال تطوّق أيدينا عندما تقدمنا أكثر، وواجهت صعوبات جمّة في الحقائب التي أحملها، إذ تقاسمها البعض معي، ولكني كنت دائماً أضيّعها وأضطر إلى البحث طويلاً عنها هناك. تقدمت أكثر تجاه القطار، وفاجأتني الروائح وهي تنطلق من داخل المركبة، وكأنها لتوها كانت تنقل الماشية. دفعني الحارس عندما ترددت قليلاً، وتبعني بعض المعتقلين، وما لبثت أن انطلقت اللعنات والسباب من كل مكان. المركبات الأخرى لم تكن لتختلف عن التي كُوِّمنا فيها، وصعد خلفنا الحراس، مُشهرين بنادقهم في وجوهنا بعد أن أمرونا بالصمت. دقائق ثم انطلق القطار، وكان البولوني بالتأكيد يعرف إلى أين، نظر إليّ ممسكاً أنفه وقال لي بغنّة:

- إنه البحر يا صديقي الإسباني.

لم أرَ بابلو هذه المرة، أما حين بدأوا في العدّ فقد سمعت اسمه، وكما سمعت ردّه على الحارس، ولكن وجهه غاص بين الوجوه البائسة للمعتقلين، ولم أعرف أي مركبة قد شُحن بها، وقدّرت أنها قد تكون الثالثة، لأن الثانية كانت تحت ناظري، ولم أره يصعد إليها. اقترب مني كورسكي بصعوبة، مخلّفاً الشاب الروسي عند الزاوية، وبعد أن وضع كتفه إلى كتفي أردف:

- أتعتقد أننا سنذهب فعلاً إلى إفريقيا؟

- وهل هناك شك؟

- ربّما سيقذفوننا في البحر، للسمك الجائع. أتعرف، لن يحاسبهم أحد، وسيُقال حادث.

- لا تسير الأمور بهذه البساطة.

- في الحرب، لا أبسط من الموت يا مانويل.

ربما كان على حق، ولكنه مع ذلك بدا هازلاً وهو يتلفظ بالكلمات، كأنه يحاول أن يلقي مشهداً مسرحياً عن عبثية المواقف التي يتعرض لها الإنسان، أو يكتشفها في لحظة صفاء ويأبى أن يصدّقها، لكنها تصرّ على البقاء في رأسه، وهكذا ظل يقيس المواقف بضمير مختلف، ربما لأنه يبدو أكثر إيماناً مني، وربما لأنه مرّ بمواقف أشد عبثيةً من هذه اللحظة التي نُشحن فيها مثل المواشي إلى مكان لا نعرف عنه إلا أن أحداً لم يعد منه. فكّرتُ ملياً في أول لقاء كان بيننا، وفي الكلمات التي قالها:

- هناك الصحراء حيث الله قريب جداً من البشر.

ماذا كان يعني بتلك الجملة؟ التفتُّ إليه محاولاً أن أستعيد اللحظة، ودهمتني الرائحة اللعينة، صعدت إلى رأسي، وامتد الألم يحرق عيني. حاولتُ أن أمسح الدموع التي نفرت، غير أن الألم يزداد حدةً، تمنيت لحظتها أن يُفتح الباب وتدخل منه الريح بعنف، سأتحمل البرد ولكني لم أستطع أن أتحمل الرائحة، وبدأت الظلمة تكتسح المكان من حولي، والوجوه تتقلص وتتسع ثم فجأةً انتشر الظلام في كل مكان.

كأنّ يداً كانت تهزني، لم أستطع الحراك، ثم امتدت ثانيةً، سحبتني بقوة إلى النهر، غمرت وجهي ثم أخرجته، ومددتني على الأرض، للحظات انتشر البياض عبر المدى وفتحت عينيّ، وجدت زوجتي في زيّ الحارس، تمرّر يدها على وجهي مثلما اعتادت أن تفعل عندما أفيق كل صباح، ولكنها بدت مختلفة. أغمضت عيني وفتحتهما، وجدت الشاب الروسي ينظر إليّ مبتسماً، خلفه كان كورسكي يتكلم إلى أحد الحراس، ثم ارتفع صوت آخر وهو يتقدم، وجثا بابلو بقربي وهو يهزني ويسألني:

- ما الذي حدث لك يا مانويل؟

وبصعوبة أجبته:

- لم يحدث شيء.

وتولّى الشاب الروسي سرد بقية القصة.

أسندني بابلو والروسي وسارا بي إلى نهاية رصيف المحطة، كان الجو ألطف والريح المنبعثة من الهواء رطبة ومعتدلة، ثم ارتفعت أصوات غير أصوات المعتقلين، وحين التفتُّ تفاجأت بالبحر أزرقَ

ممتداً. لم يمهلني كورسكي حتى أستوعب المشهد، ولحقتني كلماته:

– إنه "بور فوندراس". لم يتبقَّ الكثير ويرموننا إلى السمك الجائع، عليك أن تستعد.

عندما وقف مقاتلو الفرقة الدولية أمام البحر، كانوا أكثر حزناً من السابق، ارتفعت حناجرهم بأغنية قليلاً ما كانوا يتذكرونها، إنها التي يودّعون بها أوروبا، متجهين إلى إفريقيا. لم نستطع أن نردّد معهم، ليس لأننا كنا أقل حزناً بل لأننا لم نكن نحفظ الأغنية.

٤

لم يكن من عادة الطبيب بيير أن يتكلم كثيراً، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بالمعتقلين. بعض الكلمات والملاحظات يمليها عليهم، ثم يصمت ويتأمل وجوههم، ثم يزيح وجهه إلي حيث أقف إلى جانبه كمساعدٍ له، يطلب مني تسجيل الأسماء وبعض الأدوية المتاحة، ثم أعود وأنادي على المعتقل الذي يليه. العمل في العيادة لم يكن يختلف عن أي عمل في أي إدارة أخرى، مجرد تسجيل أسماء، يغادر المرضى في أغلب الأحيان دون أدوية، عدا بعض النصائح التي يمليها عليهم الطبيب، ودائماً تتعلق بنوعية الأكل، مع اقتناعه بموقف الإدارة من تحسينه، وفي بعض المرات تمرّ أسابيع دون أن نرى أحداً منهم.

في تلك الأيام كانت بعض الحوارات المقتضبة تدور بيني وبين الطبيب، عرفت منها تفاصيل صغيرة عن حياته، واكتشفت أيضاً ولعه بالشعر، وكرّاسة كان يخطط فيها بعض المحاولات، وربما الشعر من بين الأشياء التي جعلته يختارني من دون البقية لأن أكون مساعدا له، وكان ذلك قبل أكثر من شهرين، في أوْبتنا من مصنع الآجر، كان صديقي البولوني يقف في الجهة الثانية قرب المطبخ، وصرخ

من بعيد مناديا، وحاولت أن أردّ عليه، ولكن داهمتني فكرة غريبة اعتدناها أيام الحرب فقط، وهي أننا نردّ على بعضنا بجمل شعرية، وهكذا جمعتُ ما أمكنني من كلمات فرنسية في رأسي، وألّفتُ بيتين من الشعر، وأرسلتهما بشكل مسرحي جعلت من صديقي يتفاجأ. واتّضح أن الطبيب أيضاً انتبه لي ذلك اليوم. التقيته في المساء نفسه، رأيته واقفاً عند باب العيادة، أومأ لي من بعيد أن أقترب، وإلى جانبه كان يقف الحارس، وعندما اقتربت منه قفز الحارس من على الرصيف ووقف إلى جانبي. نظر إليّ الطبيب متفرساً:

– هل أنت فرنسي؟

– لا، أنا إسباني.

– ولكنني سمعتك تتكلم الفرنسية بطريقة جيدة!

– أمي فرنسية ووالدي إسباني.

– ماذا كنت تعمل قبل أن تدخل المعتقل؟

– كنت مدرِّساً.

– إذن ستعمل هنا كمساعد لي في العيادة.

شعرت للحظات أن الحظ قد حالفني، فالمسير إلى الأماكن البعيدة، والعمل في مصنع الآجر كان متعباً، وقبل أن أغادر أهداني علبة سجائر غولواز. فكرت وأنا عائد إلى الخيمة عن السبب الذي يجعل الطبيب مختلفاً عن البقية، أكثر بساطةً ولطفاً منهم، ولكنني شعرت أيضاً أنني أبدو مختلفاً عن البقية، ربما النظارات الطبية التي كنت أضعها والكتب التي تعجّ بها الخيمة كانت لتجعل أي معتقل آخر ينظر إليّ على أنني هنا بالخطأ، مثلما لم تختلف نظرة المقاتلين

في سييّرا عندما يبدأ البعض منهم في التهكم: ألم يكن من الأحسن لك أن تبقى مع تلاميذك!

لم يصدّق بابلو الأمر في البداية، وشكّك في نوايا الطبيب، ثم أقرّ وهو يراني في اليوم التالي، وأنا أسير دون البقية إلى العيادة، ووقف الطبيب ينتظرني عند بابها، وازداد تأكدهم وهم يرونه يعرض علي سيجارة بعد التحية الصباحية، دخلت إلى العيادة في إثره، ومن النافذة راقبت صفوف العمال وهي تنحدر من "عين الأسرار" عبر الطريق الطويلة متجهة إلى ورشات العمل.

كان العمل في العيادة أمنية للجميع، وقبل أن أدخلها لم يُتوقع أن تكون متاحة للمعتقلين. في فارني يُعدّ ذلك أمراً عادياً، إذ كان هناك أطباء، ومساعدوهم أيضاً من المعتقلين، توزّعوا تقريباً في كل مكان ما عدا الإدارة. أما هنا فبدا الأمر مستحيلاً، عدا المطبخ الذي حصل كورسكي على وظيفة فيه، ولم يُتوقَّع أن يحصل آخر على شيء كهذا، وهكذا نظر إليّ البعض نظرة الريبة، وقال آخرون إنني جاسوس، ولكن النظرة لم تستمر، إذ تولدت من الغيرة وما لبثت أن انطفأت عند أول حفلة سمحت لنا الإدارة بإقامتها في الذكرى السنوية الأولى لدخولنا المعتقل. الفريق الإسباني من الذين كانوا معي أراد الاحتفال والرقص بأي ثمن، ثم اختاروا هذا اليوم لأنه لم تكن هناك أي مناسبة. أبدى السيد كابوش استغرابه، ورفض الضابط غرافال، مؤكّداً أنها مؤامرة، ولكن مدير المعتقل وافق بعد أن أعاد حساباته واكتشف أن هناك تطوراً ملحوظاً في مصنع الآجر. وبعد يومين من الموافقة على الحفل سمحت الإدارة لكورسكي بالسير إلى المدينة، ولأول مرة

بعد سنة استطاع أن يجلب معه النبيذ ويُدخله من البوابة دون أن يفتشه الحراس أو يرتابوا في أمره. صحيح أنه سار بصحبة أحد الحراس العرب، ولكن الحادثة بقيت في أذهان الجميع، كبداية عهد جديد في المعتقل، استطعنا بعده أن نطلب أشياء أخرى يوافق المدير على بعضها، بعد أن كان كل شيء ممنوعاً.

الحفل مرّ مثل حلم، وعلق بذاكرة الجميع، حتى غير الإسبان الذين لم يعنِ اليوم لهم شيئاً، من الذين سبقونا إلى هنا، والذين أتوا بعدنا، ووجوه بالكاد كنا نعرفها، حضرت هي الأخرى إلى الحفل، مثل ليالي رأس السنة في ساحات برشلونة أو التي تُنظَّم في الملاعب. ينتظر المحتفلون اللحظات الفاصلة ما بين السنة والتي تليها، ثم يبدأ العد التنازلي وللحظة تسمع فرقعات فتح الشامبانيا. ولكن الليلة لم تكن رأس السنة، وكذلك لم تكن هناك شامبانيا، كان مجرد نبيذ رخيص، حمل منه كورسكي ما استطاع من جلفا وعاد مسرعاً خوف أن يغيروا رأيهم. شرب الجميع في ليلتنا، وغنّوا أغاني كثيرة، ثورية ورومانسية، وبعض الروس غنوا ورقصوا وبقي الجميع يحدقون فيهم مبتسمين غير مستوعبين من لغتهم أي كلمة، ما عدا الحركات التي يقومون بها، ثم انخرط الجميع في الرقصات الروسية الغريبة، حتى أُنهكوا وسار الكل إلى خيامهم وظلّوا يلوّحون من بعيد وكأنهم يشيعون بعضهم بعضاً لآخر مرة.

لا أنكر أني اختلجت أول مرة وصل فيها البريد إلى "عين الأسرار". شاهدت السيارة تتسلّق برتابة التلة التي اعتلاها المعتقل، ووقف غرافال يراقبها هو الآخر، وإلى ذلك اليوم لم تكن قد توزعت

علينا الأعمال، وانشغلنا ببناء المعتقل والبحث عن الماء، فما إن وصلنا حتى تفاجأنا بإفريقيا مختلفة، أفظع من التي حدثونا عنها. وبعد أيام قضيناها في قلعة كافارولي، سرنا إلى هذه التلة، في صباح باردٍ تيبّست فيه أرجلنا داخل الأحذية، وحتى الألبسة التي كنا نرتديها لم توقف ولوج مساميره الحادة. في مسيرنا رأيت الصبائحي أحمد، تناهى لي غامضاً في شكله الغريب، مثل صور العرب الأوائل الذين دخلوا إسبانيا: اللباس العربي والعمامة التي تتوّج رأسه، أو بالأحرى تلفّه، الفرس التي يعتليها وحتى الإيماءات والإشارات التي ما بينهما، تصرفا مثل صديقين قديمين، إشارات بسيطة هي التي تتحكّم في المسير، لم يتكلم مع بقية الحراس العرب، وهم يحوطوننا من كل مكان، ونحن نسير مكبّلين في صف امتد مسافةً طويلة. كنت ألتفت محاولاً رؤيته حيث تخلّف، نزل من على صهوة فرسه، وسحب علبة من جيبه وورق لفّ، ولفّ سيجارة بسرعة ثم أشعلها وسحب منها عدة مرات متوالية وقذف عقبها بعيداً، وعاد إلى صهوة فرسه. كان الوحيد بين الحراس الذي امتلك فرساً، وبدت ميزة له، وهو رئيس الحرس، أكثر حرية، أن يدخّن أثناء العمل، ولم يجرؤ البقية على ذلك. كان انطباعاً أولياً عن رجلٍ عربي ذي ملامح مختلفة.

سرنا يومها أكثر من كيلومترين، المسافة الفاصلة بين المعتقل وبين القلعة القديمة، ووصلنا أعلى الربوة، امتدت مساحة منبسطة من الأرض سُيِّجت بالأسلاك الشائكة. فزعت وأنا أرى العقوبة وهي تتجسّد. التفت إلي بابلو الذي كان فاغر الفم مدهوشاً يراقب المدى المفتوح أمامه، الفراغ هو كل شيء في ذلك المكان المحاط

بالأسلاك الشائكة، وتمتم كورسكي: "أتراها سدوم بعد ما نزل بها من عقاب". وبقينا غير واعين ما الذي تجلّى أمامنا: أرض خاوية منبسطة، لا نبات ولا شجر ولا أي شيء، عدا بناء متواضع نهاية الحقل. أدخلنا الحراس إلى هناك، وبقينا للحظات ندور مثل مجانين داخل السياج. سرتُ شرقاً إلى النهاية حيث الأسلاك، تأملتها من هناك، ولم أنتبه وقد وقف خلفي، ثم اقترب وصار إلى جانبي، وسمعته يتمتم: "'عين الأسرار' ترتفع عن العالم الأرضي في عقوبة سماوية لنا نحن الذين أذنبنا. كل شيء مدوَّن من قبل أن نولد، نحن البشر". صمت ثم ارتفع صوته:

– نحن البشر نستحق أكثر من هذا يا مانويل.

– ولكن لماذا؟

– لأننا نمجّد الموت، ونصنعه كل يوم. أنتم تبكون إسبانيا، وأروبا ستبكي نفسها طويلاً بعد زحف هتلر.

صمتنا وعدنا بوجهينا إلى الشرق، وكنا نرتفع عن العالم الأرضي مثلما كان يقول البولوني. تأملت المدينة من الجهة الغربية للمعتقل، صغيرة محتمية بأسوارها، ورأيت مسجدها القديم مرتفعاً هو الآخر فوق تلةٍ كالتي كنا عليها. وحتى المقبرة التي رأيناها في الجهة الشرقية كانت غريبة، وتساءلت عنها، ولكن صديقي لم يسعفني بحكمته، وانتبه بعد أيام فقط إلى مقبرة اليهود من الجهة الجنوبية للمعتقل، وإلى ذلك اليوم لم يكن يعرف أن في المدينة يهوداً من السكان الأصليين.

حين ارتفعت نداءات الحراس علينا عدنا مسرعين إلى حيث اجتمع بقية المعتقلين حول الشاحنة العسكرية، وبدأت كل مجموعة

تسحب منها الخيمة التي ستنصبها. تطوع الحراس العرب لمساعدتنا ثم تفرقوا لسماعهم صراخ غرافال عليهم، وبقينا وحيدين مع أدوات ضئيلة نصبنا بها الخيام، وقسمنا أنفسنا إلى مجموعات، وكلٌّ اختار من يقاسمه المكان.

بالنسبة للجيش كانت فكرة الخيام وقتية لا تتعدى الأربعة أشهر، وبالنسبة لنا تجاوزنا تحتها السنة، واحتفلنا أيضاً بداخلها بذكرى مرورها.

كنت أسمّيها ربوة الريح، وأحياناً معتقل الريح، شعرت أن زوجتي ستحب هذا الاسم، وربما تقترح عليّ أن أكتب قصة عمّا حدث لي هنا، وأطلق عليها اسم "ربوة الريح"، ولكن صديقي البولوني أراد أن يكون الأمر شاعرياً، وآمن أن اسمها القديم يحمل معنىً أجلّ، ظلّ يردده ويترجمه إلى اليديشية، وأقنع الجميع أن "عين الأسرار" مثل العناوين الموجودة في التوراة، وبدوت الوحيد الذي يفهم ما كان يرمي إليه، حيث لم يكن هناك إلا بابلو وثلاثة من الإسبان الذين قاتلوا معنا في برشلونة، وكانوا قليلي الثقافة، وربما لم يقرأ الواحد فيهم أبداً الكتاب المقدس في حياته، ما عدا العجوز الذي كنا نتوقع موته في كل لحظة، فقد تقدّم منا منحنياً حين تلفظ البولوني بترجمة الكلمة باليديشية، ثم وهو يعيدها هامساً مثل صلاة سرية يتمرّن عليها، واتفقنا يومها أن تكون باسمها العربي القديم.

حاولت أن أحافظ على الوعد، لكني في كل لحظة أجدني أنادي الرياح التي تهبّ من كل جهة، ترفع الخيمة وأجاهد نفسي وأنا أمسك طرفها، وأضع الأحجار فوقها. تنتفض الريح على مقاومتي

وتصفر صفيراً قوياً، وتضرب الخيمة ضربات متوالية تهتز لها الأوتاد المغروسة في الأرض وترتجف الحبال، ثم للحظات تهدأ حتى أقول: "سكنتْ"، ثم تصفر بطريقة مفزعة وتضرب الخيمة. في المرة الأولى تقلع الأوتاد، وفي الثانية تحلّق الخيمة، ويقفز الجميع مسرعين خلفها، أنا وبابلو والثلاثة الآخرون، نجري لمسافة ثم ندركها وقد علقت بالأسلاك الشائكة، وتبدأ قصة أخرى في نزعها من هناك وإعادتها ثم نصبها من جديد.

كم صفرت الريح ذلك الشتاء في ربوة الريح؟ لا أدري، ولكن في بعض الليالي نعدو مثل مجانين، ونطلق السباب خلفها ثم نعود بها. ولم نكن الوحيدين، ففي العديد من الليالي صفرت الريح، وأعادت لنا الصراخ والسباب من الخيام الأخرى.

في البداية لم أكن لأردد ذلك الاسم الذي اتفقت أنا وكورسكي والبقية على أن نطلقه على الربوة التي بها المعتقل، ولكن عندما أوشكت الرحلة على الانتهاء، وعندما كانت له أيام السبت ولي أيام الأحد في المدينة الصغيرة التي أسفل الربوة، اتفقنا بعدها على أن التسمية لم تكن دقيقة، بل يجب أن تتسع أكثر، واكتشفنا أيضاً أن المدينة لم تكن سوى منفى قديم، وربما كان اتفاقنا في الأخير على نفس التسمية، التي أعادها صديقي بلغته عدة مرات، وبدا له اسم "بلد المنافي" معقولاً إلى حدٍّ ما، وذهب يفتش في كتابه إن كان قد مرّ على جملة مشابهة فيه.

٥

ريح خفيفة هبت، وبدا الجو معتدلاً، حين امتد البحر أمامنا، في "بور فوندراس"، ولكن الحزن أيضاً تسلق إلى الوجوه وتسرب عبر مسامات الجسد إلى الروح، ومعه الأغاني التي ارتفعت من حناجر الفرقة الدولية، وحتى المجموعة التي وقفت قريباً منها، كانوا أيضاً من الإسبان، ولكنهم لم يقاتلوا في سييرا دي مويرتي.

سيّيرا آخر نبض في قلوبنا، داخل الأرض الإسبانية، ومع توقف ذلك النبض خرجنا من هناك وابتدأنا رحلة أخرى عبر طرق لم نعهدها. هكذا فكرت وارتفعت موجة الصداع أكثر، مدّني بابلو بسيجارة، أشعلتها تحت ناظره، وتأملني كورسكي ملياً، ثم مدّني بزجاجة صغيرة يحملها دوماً معه، عببت الماء بسرعة وكأنني لم أشرب منذ عام، وحين أعدتها إليه كان لا يزال يتطلع إلي ويبتسم. لم أفهم تفاؤله، ولماذا ينظر إلى إفريقيا بطريقة مختلفة، في ناظره هي ليست منفى بقدر ما كانت فضولاً متواصلاً، ومعارفَ يفاجئنا بها، تجعل رؤيته مخالفة للجميع، حتى الذين لم يقاتلوا معنا من الفرنسيين، ودخلوا إلى فارني في قضايا أخرى، ثم شُحنوا إلى إفريقيا

دون أن يدروا إلى أين يسيرون.

قبل أن نرى المركب الذي سيحملنا، لم نعرف بالضبط إلى أين سنبحر في إفريقيا، ولكن أحد الفرنسيين، وهو يرى المركب يتقدم، قال إننا سنبحر إلى الجزائر، ولكنهم لم يعرفوا أي ميناء سنرسو بِه، وبقيت الاحتمالات معلقة، إلى أن تعالت صرخات الحراس. اصطففنا مثلما في السابق، وسحب كل شخص حقائبه، وجعلت البولوني يعينني في حمل بعضها، وهكذا سرنا حتى بلغنا المدرج.

لم يكن المركب للرحلات، كما أنه لم يكن للصيد، بدا قذراً، كأنه لم ينظف منذ سنوات، تتدلّى منه الطحالب البحرية، ومع ذاك يُستعمل لحمل السلع من الجزائر إلى فرنسا، وكنا من بينها في ذلك اليوم الشتائي المعتدل. صعدنا المدرج ببطء، وفي دقائق كنا بالأعلى، وقبل الرحيل اصطففنا ثانيةً هناك، ونودي علينا بأسمائنا، وتقدم أحد البحارة، تفرّس في الوجوه وكأنه يبحث عن أحدٍ ما، ثم عاد بوجهه إلى الحراس الذين رافقونا، وكأنه يشير عليهم بحركة ما، لم نفهم منه أي شيء، سار بضع خطوات إلى الأمام، وانحنى على الأرضية، وفتح باباً يؤدي إلى المخزن بالأسفل، حيث كان يشحن كل شيء داخله. لم تكن تختلف عن المقطورات اللعينة، إذ ما إن نزلنا فيها، حتى ارتفعت روائح الحيوانات التي أفرغت للتو بالميناء، وهذه المرة لم تكن الروائح فقط، بل امتدت حتى إلى بقاياها التي خلّفتها. صرخ الجميع محتجين، والبعض ارتفع صوته بالسباب، ولكن البحار أطلّ من الكوة وهو يضحك:

- عليكم أن تختاروا الآن بين البحر وبين هذا المكان.

صمت الجميع، ولكن شخصاً تكلّم في الخلف:

- نريد الصعود إلى أعلى، سنختنق في هذا المكان.

لم يجبه البحار عندما صفق الباب، ولكنه عاد بعد دقائق بوجهٍ مختلف، واتفق مع الحراس على أنهم، في كل ساعة أو ساعتين، يستطيعون إخراج البعض منا لدقائق إلى السطح، حتى نصل إلى الجزائر.

كانت فكرة معقولة بالنسبة للمعتقلين، ولكن الرائحة جعلت البعض ييأس ويلعن المركب والبحار، وامتد السباب حتى للمعتقلين، وكادت أن تنشب معركة بين إسبانييْن بسبب المكان، لم أسمع سوى صوتيهما وهما يرتفعان بالشتائم، كانا يتكلمان اللهجة الجنوبية نفسها، ثم تدخل صوتٌ آخر كنت أعرفه، ورفعت رأسي محاولاً أن أرى صاحبه، ووجدت بابلو بين المتخاصمين، يتكلم بسرعة لم يلفظ معها نصف الحروف، ثم صالح بينهما وعاد إلى مكانه قربي.

انتبهت إلى أنني لم أرَ كورسكي منذ أن صعدنا المركب، التفتُّ أبحث عنه ولم يكن بالأسفل، ثم سمعت صوته ينفذ من الكوة بالأعلى، تسلّقت السلّم ورأيته واقفاً عند حافة المركب مع مجموعة من المعتقلين، يدخّنون سجائرهم، بينما يتأمل البحر ثم يعود ويتكلم إليهم، وبالرغم من أنهم محاطون بالحراس إلا أن تصرفاتهم أوحت أنهم كانوا في رحلة بحرية، يقهقهون ويتبادلون النكات، وأحياناً يشتبكون بالأيدي تحت أعين الحراس، الذين يتدخلون ويهددونهم.

المشهد لم يستمر إلا دقائق فقط، ولكنه دام في عقلي وجعل يستطيل، محرضاً الأسئلة، عن سرّ الحزن والفرح في حياة البشر،

أسئلة لم تكن لترتفع حتى ونحن على جبهة القتال، حيث شغلنا الموت عن الحياة. من الكوة أيضاً رأيت النوارس تحلّق بحرية ولكني لم أحسدها، بدا لي شعوراً قديماً، إذ لم يعد يكفي أن أصبح حرّاً فقط.

القضية بالنسبة لي ولبابلو وللعديد من الذين كانوا معنا مختلفة، سواء من الإسبان أو ربما من الفرقة الدولية. أصبحت الحرية وحدها غير كافية، ربما كبداية، ولكنها غير كافية. العودة إلى إسبانيا والقضاء على الفاشيست صار حلماً يزداد بعداً كل يوم. انتبهت إلى أن النوارس كانت تصيح وتحلّق بكثرة فوق الكوّة، ووددت أن أقول لها: "تستطيعين الصراخ مثلما تشائين، لن أحسدك على حريتك، إنها لن تعني لي أي شيء، الحرية خارج إسبانيا هي مجرد وهم بالحرية، إنها لن تختلف عن أي منفى، سواء أكان في إفريقيا أم في نهاية الأرض".

تفرقت النوارس عندما اقترب الحراس وبرفقتهم بقية المعتقلين. نزلتُ مسرعاً عبر السلم، ثم فُتح الباب ونزل منه كورسكي والبقية، وصعدت مجموعة أخرى كنت وبابلو من بينها، ومثلما فعلت المجموعة الأولى فعلنا، سرنا إلى حافة المركب وملأنا صدورنا بهواء البحر، ثم سحب كلٌّ منا سيجارة أشعلها ونفث في وجه صاحبه الدخان، وعادت النوارس أيضاً تحلّق من جديد فوق الكوة، وفكّرتُ أنا الآخر فيها، حاولت أن أعود إلى تصور الحياة من خلفها ولكنني عجزت، بالتأكيد لم يكن بحجم الاكتشاف، ولكن بالفعل كانت التصورات تفرّ مسرعةً نحو المجهول، وكأن روحاً وهبتني تصورات عن حيوات أخرى خارج إسبانيا، ولعلها أرادت محاربتها بداخلي

كلما أحاول التفكير فيها، ما عدا الأيام التي في سيّيرا، ربما لأنها حُفرت بالنار في جدار الذاكرة.

"لقد علقنا هنا"، قال بابلو بينما كنا في الخيمة، مساء اليوم الأول لي في العيادة، وبدا حزيناً وهو يتفرس في الأرض ويخطّط بها رسومات غير مفهومة. فكّرتُ بحزننا المشترك، بالرغم من أنه الوحيد الذي شعرت أنه يحمله، ففي لحظات غضبه يمتد صراخه إلى كل مكان وأحياناً تنتابه هستيريا عنيفة، عندما تسوء المعاملة في مصنع الآجر، وتنخفض الإكراميات، التي يحفّز بها السيد كابوش عماله، بشكل يومي، يعودون بعلب السجائر، والزيادة في الخبز والبلح. ولكن ثورته اليوم لم تكن من أجل الإكراميات، ولا من أجل شيء آخر داخل المعتقل، بل لتأخر الرسائل التي، رغم قلّتها، لكنها تأتي في فترات رتيبة. كل شهر يستلم رسالتين. منذ أن كنا في فارني وحتى في الأشهر الأولى في جلفا كانت الرسائل تصل في أوقاتها، ومن بينها رسائل زوجتي، تأتي تباعاً في أوقات محددة. والآن انقطعت الرسائل التي اعتادت أن تأتيه موقعةً من باريس وأحياناً من مرسيليا، ولشهرين لم تصله، مع أن سيارة البريد تأتي دوماً في أوقاتها محمّلةً بالرسائل والطرود التي تحوي الكتب والسجائر وأحياناً علب التونة، نسمع صوتها وكأننا موعودون بالفرح، يخرج الجميع من الخيام، تسري رعشة في الأجسام، وتتعلق العيون بها وهي تتسلق ربوة معتقل الريح، وفي لحظات تفتح البوابة، يسير الأمر مثل مسرحية مؤثرة، كل الوجوه تستقي الأحداث داخل المشهد، وما إن تتوقف حتى نحيط بها من كل جانب، ونسمع المناداة على الأسماء. أستلم رسالة

من زوجتي، وفجأةً أسمع اسم بابلو الذي تركته في الخيمة، رافضاً انتظار السيارة، أحمل الرسالتين بفرحٍ طفولي وأركض إلى الخيمة، أريه رسالته، يقفز ويسحبها من يدي، يفضّ عنها الغلاف بعصبية، يسحب منها الورقة، يقلبها في يديه يستنشقها ثم يعيدها إلي، وأكون حينها متكئاً قربه.

لم يحسن بابلو الفرنسية، بل حتى لغته الإسبانية متعبة، وكلما تصله الرسائل يدفعها إليّ، أعمل على ترجمتها إلى الإسبانية، ومع ذلك تبقى بعض الأفكار مبهمة بالنسبة إليه. أذكر أن أول رسالة وصلت بينما كنا في "فارني دارياج"، في ذاك الصباح بدا الأمر غريباً بالنسبة لكلينا، وبالرغم من أنه كانت تصله رسائل من صديقه الفرنسي الذي تعرّف عليه في مدريد قبل الحرب، وزاره في فارني، وحدّثه عن شابة تعمل أستاذةً للأدب الفرنسي، أحبّت أن تتعرف إليه، ولم يعترض بابلو، وبعد أيام نسينا القصة، ثم فجأةً وصلته رسالة مدبّجة بلغة فرنسية جميلة ومعانٍ فلسفية عميقة. في البداية تأمل بابلو المغلّف، ولولا اسمه الثلاثي المكتوب بوضوح لاعتقد أنها ليست له، حملها إلى الغرفة التي كنا نتقاسمها، كانت غرفةً جيدة إذا ما قورنت بالأكواخ التي بنيناها فيما بعد في معتقل جلفا، وجلس يقابلني على سريره، سلّمني إياها، فضضتُ الغلاف وبدأت في القراءة، دهشتُ ممّا كتب فيها، كان اسمها ماري، بدا مألوفاً لشابة فرنسية، تحب الفلسفة والأدب، وتكتب الشعر والقصص، وتفكر في هذا الثائر الإسباني الذي يجلس قبالتي.

سحبتُ قلماً وورقة وشرعت في ترجمة سريعة للرسالة، سعدت

وأنا أواجه معانيها العميقة ثم أبحث لها عن معانٍ موازية في الإسبانية، ثم امتدت إلى الأبيات الشعرية التي تتحدث عن السجن بعيداً عن الوطن، ولما فرغت من ترجمة كل المعاني، وتجلّت الرسالة بشكلها الأخير، التفتُّ إلى صديقي المستلقي على سريره وقرأتها عليه.

عرضت ماري على بابلو صداقتها، وفي كل فقرة تردد أنها تريد مساعدته، وأنها تحترم فيه ذلك البطل الذي حارب من أجل وطنه، ولكنه سُجن ونُفي بعيداً عنه. أرادت أن ترسل إليه كتباً ليتعلم الفرنسية، ليستطيع أن يقرأ رسائلها بنفسه، ثم سلمت إلى أن يستمر صديقه في قراءتها له. طلبت منه في الرسالة الثانية أن يكتب لها عن حياته، وكيف يعيشها في معتقل فارني، وإن كان يحتاج أشياء تستطيع أن ترسلها له. وفي الرسالة الثالثة رأيت وجه ماري، صورة بحجم متوسط رافقت رسالتها إلى فارني، وأعتقد أنه ومنذ ذلك اليوم علقت بقلب بابلو وأصبحت جزءاً منه، تزداد حيويته بقدوم الرسائل، وهو الذي لم يكن يفهم كل شيء فيها، بالرغم من الترجمة التي كنت أقوم بها والتبسيط الذي أعطيه للمعاني.

ومنذ الرسالة الأولى التي كتبها، والحقيقة أنني أنا من فعل ذلك، أسجّل بعض الخواطر لزوجتي، أدوّنها في دفتر صغير أحمله معي دائماً، أستعين به عندما أودّ أن أكتب إلى ماري. بالطبع كتبت إليها بالإسبانية، ومع أنها كانت قارئة جيدة إلا أنها لم تتجرأ وتكتب الرسائل بها، قالت ذلك عدة مرات في بقية الرسائل التي وصلت إلى جلفا.

هل كان أخلاقياً؟ كنت دائما أردّد السؤال على نفسي، لماذا

نضطر إلى فعل ذلك؟ لماذا نضطر إلى الكذب؟ بابلو يجيب أن الأمر كان في البداية مجرد مزحة. التفتُّ إليه:

– والآن يا بابلو، ثلاث رسائل قد وصلت، وأخرى مثلها أُرسلت.

يصمت بابلو ويُخرج الصورة من جيبه:

– لا أعرف يا مانويل ولكنني بدأت أتعلّق بها...

– تحبها إذن...

– أجل.

– ولماذا لا تصارحها؟

– لا أريد أن أخيّب ظنها.

– ولكنها ستكتشف ذلك في يوم ما.

– دع كل شيء مثلما هو.

من رسالتها الأولى عرفت عن أي شيء تبحث ماري، وعرفت أيضاً كيف بدا لها بابلو، بطلاً يحارب على الجبهة، وشاعراً يرصف الكلمات عن أحزانه التي يقاسيها بعيداً عن وطنه إسبانيا. رسمت لها مخيلتها في البداية نصف الصورة، وتدخل صديقه الفرنسي في رسم البقية وربما جاءت الرسائل أيضاً لتجعل عواطفها تلتهب، وتعترف له في أول الرسائل التي وصلت إلى جلفا أنها بدأت تتعلق به، وأن حباً بدأ ينمو في داخلها تجاهه، ثم أرسلت له صورةً أخرى كانت أكثر وضوحاً. كانت تقف في حقلٍ واسع بين الفلاحين، وظلت تحدثه عنهم وعنه، هو الذي كان فلاّحاً إسبانياً، يعرف كيف يتحدث عن الحقل بطريقة جيدة. وهكذا توالت الرسائل لأشهر بعدها، حتى قبل شهرين، توقفت.

في الحقيقة إن ثورة بابلو بدأت خلال الأسبوع الثاني من توقف الرسائل، واستمرت في التنامي حتى أوشك أن يؤخذ إلى كافارولي لولا تدخل الصبائحي أحمد وفكّ العراك الذي أوشك أن ينشب بينه وبين أحد الحراس العرب. لم يحكِ لي بابلو القصة يومها، ولكن الصبائحي هو من قصها عليّ. في اليوم الموالي وقف عند باب العيادة، وانتظر مغادرة الطبيب إلى الإدارة، دخل مباشرةً إلى المكتب وقص عليّ الحادثة، وحذّرني من إثارة المشاكل لأنهم لن يرحموه لو عبث مع حارس فرنسي، ثم أردف:

- عليه أن يعدّ نفسه محظوظاً إذ كنت هناك وكان من تخاصم معه من العرب.

شكرت الصبائحي أحمد علي المعروف الذي قام به من أجلي، ولم يلبث أن غادر مع عودة الطبيب. وفي المساء عدت إلى الخيمة، وجدت بابلو نائماً، واستمر نومه إلى ظهر اليوم التالي، وحين أفاق، حاولت أن أتكلم معه، لم يجبني، وبعد أن أظلمت جلس قربي وبدا متعباً أكثر من أن يحتمل العتاب أو كثرة الأسئلة. بقينا صامتين نتداول على فنجان القهوة وعلى السيجارة، ثم عاد كلٌّ منا إلى فراشه.

في صباح اليوم التالي تكلّم بابلو. لم أسأله وتظاهرت باللامبالاة، ولكنه أصرّ على الكلام، قال إنه لا دخل له فيما حدث، وأن الحارس العربي هو من ثار في وجهه وأراد ضربه، ثم وقف وأردف وكأنه شخص لا أعرفه:

- أتعرف ما معنى أن يتجرأ أحد على رفع يده في وجهك ويهددك بالصفع؟ في الحرب لم يكن لأحد أن يفعلها، حتى ولو كان عقيداً،

كان يعلم أنه لو فعلها لملأتُ بطنه بالرصاص. كلنا كنا سواء، ولكننا كنا ملتزمين بالقانون.

أجبته:

- لسنا في الحرب يا بابلو. لماذا لا تدع سيّيرا تذهب إلى حالها؟

- كيف أدع سيّيرا، كيف لك أن تقول هذا! وأنت الذي أغرقتنا بالأشعار عنها في فارني وحتى في الجبهة، أم أنك لا تتذكر!؟

- فعلاً بدأت أنسى أنني كنت شاعراً، ولعليّ آمنت بأنني معتقل.

- إن استمررْنا هكذا، وبهذه الطريقة، سنموت هنا.

- ماذا تريد؟

- لا شيء. دعنا من هذا.

- لا تثر المشاكل يا بابلو، وتذكر دوماً أنك لست أقوى من ذلك الرجل الذي كان على المركب.

- أعرف، ولكنه أيضاً ليس أشرف مني.

قال ذلك وسار إلى حيث اجتمع بقية العمال، منتظرين الحراس.

بين بابلو وماري مسافة كبيرة لا يدركها أيٌّ منهما، كانت تفكر في حلم يجعلها تتمسك بالعالم الذي بدأ ينهار من حولها، وجسدها الذي يضمر شيئاً فشيئاً، وحتى الرسائل هي الأخرى مثلها، وبعد ذلك اليوم وصلت رسالة واحدة، ثم انقطعت فجأة. ولكن ما الذي يبحث عنه شخص مثل بابلو في امرأة مثل ماري؟ يعترف أحياناً أنه لم يجرب الحب أبداً في حياته، إلا مرة واحدة عندما كان في القرية، أحب ابنة أحد الفلاحين، في مراهقته، ولم يلبث أن نسيها وتزوجت هي أيضا فلاحاً آخر، ثم يتعلق بالشابة الباريسية، التي تعترف أيضاً أنها تحبه.

في البداية بدا لي الأمر معقولاً، ولكن حين كررت الفكرة في راسي، لا أدري لماذا اعتقدت أن هناك شيئاً ما غير طبيعي، عدا أنني الذي يكتب الرسائل، وأنا الذي أشعر بها، وهي تريد ما لن يستطيع بابلو أن يفهمه، إنها الرغبات الفكرية التي يبحث عنها بعض المبدعين بالتراسل. قد تكون قد أحبته ولكنه حب مختلف، مثل الذي يتولد تجاه بطلات الروايات الفرنسية، ولكنه لا يلبث أن ينطفئ فجأةً بالنسيان. خمّنتُ ذلك عندما انقطعت رسائلها من قبل، وفشلتُ وأنا أطالع الظرف بعد شهرين، يحمله بابلو مزهواً به، وهو الذي يحب مثل الجميع، ويكره مثل الجميع، وإذا غضب أو حزن يضطر إلى الصراخ من أجل أن ينسى، لم تغيّره الحرب كثيراً، ولا حتى المعتقل، واستمرّ في طبيعته التي حملها من القرية، كفلاح يحسن استعمال السلاح، ويريد الدفاع عن وطنه.

٦

اعتقد بابلو أنها رحلتي الأولى مثله، هو الذي لم يجرّب دوار البحر، إذ ما إن صعدنا حتى شعر بالدوار وبدأ في رمي كل شيء كان قد أكله. كان الحراس يراقبونه ويسخرون منه، رمقهم بنظرات، ثم طلب إليهم أخذه إلى الحمام، وبصعوبة وافقهم البحّار، لم ينتظر إلا لحظات وسار إلى الحمام رفقة الحارسين، ثم عاد وقد تغيّر وجهه إلى الأحسن. ناولته السيجارة بعد أن أشعلتها، وظللت أحاصره بنظرات مبتسمة، انزعج منها وأشاح وجهه إلى البحر. كانت تتصاعد موجات صغيرة ترتفع بشكل متوازٍ، ثم تنحني داخل المدى المائي المستوي، ظل يراقبها ثم هُيئ لي كأنه لا يراقبها، بقدر ما كان يفكر في أشياء أخرى، ثم التفت:

– معذرة ماذا قلت، آسف كنت شارداً.

– لم أقل شيئاً.

– آسف.

رمى عقب السيجارة في البحر، ثم قال:

– أهذه أول مرة تستقلّ فيها مركباً؟

- لا... عدة مرات.

- متى؟

- قبل الحرب، زرت المكسيك ولكن في باخرة كبيرة، ودامت الرحلة أياماً طويلة.

البعض من أقاربي رحلوا إلى هناك أثناء الحرب، لم يستطيعوا تحملها. في البداية، وقبل أن تسقط القذائف، لم يفكّروا في الهجرة، ثم وهم يرونها تنزل مثل الأمطار الشتائية، قرروا الرحيل إلى المكسيك. ظلت أمي تبكي ليومين حين عرفت أنني سأبقى، وترجاني والدي أن أرحل معهم، ولكنهما سلّما في الأخير، وقبل أن يصعدا الباخرة منحاني بركتهما، وربما هي التي نجّتني طوال الفترة التي كنا فيها في سيّيرا، وأؤمن أنها هي التي ستنجيني في الأيام القادمة في إفريقيا المختلفة عن التي عرفناها من الجغرافيا.

لم تدم الوقفة على ظهر المركب إلا دقائق، ولكنها استطالت مثل آلاف السنين، وصدري الذي أفعم بريح البحر المتوسط، وصدق وهم الرحلة، وكأنه لا يريد أن يعود إلى مخزن المواشي. وددت أن أرجو الحارس أن يبقيني لدقائق أخرى، وترددت وأنا أرى معتقلاً آخر يحاول أن يغريه بذلك، ثم تدخل أحد البحارة، كان ضخماً بغرابة وكأنه قادم من نصوص الإلياذة الهوميرية، تقدم منهما ووقف بين الحارس والمعتقل، وبدوا بحجم الأطفال قربه. ساد صمتٌ رهيب في المكان، وانتشر السكون المشوب بتوجس المراقبين، الكل ينتظر ماذا سيفعل البحار، وللحظة لم يفعل أي شيء. النظرات امتدت بينه وبين المعتقل، مثل خيطٍ ناري، ثم ارتفعت يد البحار

إلى أعلى، ونزلت مثل قذيفة، هُيئ لي أني سمعت لها صوتاً، ولكنها توقفت. غيّرتُ مكان الرؤية عندما حُجب عني جسد المعتقل، ومن جهة أخرى رأيت اليد الضخمة عاجزة عن الإفلات من قبضة الطفل.
التفتُّ إلى بابلو الذي ابتسم وكأنه توقع النتيجة، وحين رأيته يغمز بعينه سألته:

- هل ما يحدث حقيقة، أم أنها تمثيلية؟
- لا، إنها حقيقة، والشخص الذي تكهّنت بضعفه يستطيع أن يقهر خمسة رجال.
- أتعرفه؟
- لقد شاهدته يقاتل عدة مرات في الشوارع الخلفية لمدريد، قبل الحرب أيام كانت المراهنات رائجة.
- هل كانوا يراهنون عليه أيضاً؟
- نعم، ويطلب أحياناً أن يتقدم اثنان أو ربما ثلاثة.

المشهد لم يبدُ مقنعاً، على الأقل من ناحية الشكل، ولكن بابلو ظل مصرّاً على قناعاته. لم أشأ أن أستمر في طرح الأسئلة، والتفتُّ إلى الحقيقة التي تتّسع أمامي. كانا لا يزالان على الحالة نفسها، البحّار يحاول أن يفكّ يده من قبضة المعتقل، ثم فجأةً لم نعرف حتى كيف فعلها، أو كيف استطاع أن يتحرك بتلك السرعة، التفّ المعتقل من حول البحار، حمله ثم رماه بعيداً حيث الجهة الثانية للمركب. تأخر الحارسان بخطوات إلى الخلف، وأشهرا بندقيتيهما تجاهه، وتحرك البحّار بتثاقل غير مصدّق ما حدث، وقف وصرخ على بقية أصدقائه، وبدأ المكان يعجّ بهم، خرجوا من كل مكان في

المركب، ووقفنا مشدوهين من المشهد، ولكن بقية الحراس كانوا يتجمعون حولنا ويسوقوننا إلى الباب السفلي. كنت أراقب بابلو، شعرت أنه سيقذف بنفسه على البحارة محاولاً مساعدة المعتقل، ولكنه أحجم، وأسعفته الحكمة وهو يقف أمام فوهة المخزن، ثم وهو ينزل عبر السلم. سمعته يتمتم بكلمات، بالتأكيد عما حدث، وتنبأت أثناء نزولي بما سيفعله لو نشبت المعركة في أحد شوارع مدريد الخلفية، يقفز بين البقية، يسند ظهره إلى ظهر المعتقل، ويبدأ الصراع، شجاعاً مثل أوديسيوس في مواجهة كل الوحوش، تخيّلته مثله في لباسه اليوناني القديم، ولكن الصورة غابت ما إن نزلت إلى المخزن، وغزت الرائحة اللعينة المكان، لا أدري كم بقرة شُحنت هنا، وحتى كم هم المعتقلون الذين ساروا معي من فارني، قال بابلو إنهم تجاوزوا المائة، أما كورسكي فاعتقد أنهم أربعة أو خمسة فوق التسعين، المهم أنّ في ذلك اليوم نقص أحد المعتقلين، ولم ينزل الرجل الأسطوري إلى القبو الذي شُحنّا به.

البعض ممّن شاهد بقية القصة من الكوة قال إن البحارة هجموا مجتمعين على الرجل الأسطوري، وأنه بقي يقاتلهم لساعة، حيث رمى ثلاثة منهم في البحر، وجرح آخرين، ولولا أنهم أصابوه بطلقٍ ناري لما انحنى لهم، ولكن القصة كانت غريبة وأكثر تفاهةً من أن نصدقها، إذ لم نسمع أي جلبة، وحتى أنه لم يرتفع هناك أي صوت لإطلاق للرصاص. أما كورسكي فقد كان أكثرنا امتعاضاً من القصة، وحاول أن يجد لها نظيراً في كتابه المقدس، ولولا أن الذاكرة خانته لبقينا بقية اليوم نسمع قصصاً طويلة، ولكنه قال نبوءته: "كل الأبطال

سيسبيهم ملك البحر". ولكن معتقلاً فرنسياً كان في الجهة الثانية للقبو تكلم، ارتفع صوته بحيث التفت إليه الجميع مصغين، قال إننا يجب أن نفعل شيئاً تجاه ما حدث، وأننا بهذه الطريقة حتماً سنموت الواحد تلو الآخر، وأنهم سيرمو ننا حتماً إلى قروش البحر المتوسط.

باهتياجه وصراخه استطاع أن يقنع البعض، ولكن الأغلبية كانت يائسة، ولماذا أعتقد أن البولوني هو الوحيد الذي كان يفكر في أشياء لا تعنينا، وكأنه لا يؤمن ببساطة الثنائية الموجودة بين الحياة والموت، وأن طلقة رصاصة تستقر في رأس الإنسان يسددها أحد الحراس تنهيه، ويتجاوز الستار الموجود بين الحياة والموت. لم يكن هناك اعتبار لمثل هذه الأشياء، بقدر ما كان هناك عالم آخر موازٍ لما كنا نعيشه، أكان مليئاً بالموت أم بالقذارات الحياتية التي نعيشها؟ أم أنها جنة عدن؟ لا أدري أي أفكار دارت في رأسه، ليس مثل بابلو كل ما يريده أو ما يعتمل بداخله، يتجلى ببساطة من طريقة تلفظه للكلمات، وحتى في حالات طيشه أتنبأ بالكلمات التي يقولها. لم يكن بسيطاً بمعنى السذاجة، كما لم أكن لأفكر تجاهه هكذا، ولكني طالما احترمت الرغبات التي اجتاحته لأنها كانت صادقة، ومنذ أن التقيته في برشلونة، ثم سرنا معاً متجهين إلى سييرا دي مويرتي، كنت قد عرفت عنه كل شيء، وحتما ما زلت مقدِّراً جميله، حين جُرحت واضطر أن يحملني مسافةً لا يستهان بها، مع أن الرصاصة قد لامست جزءاً من ساقي، إلا أنها خلّفت جرحاً لم أستطع السير منه لعدة أيام، وهكذا حملني بابلو. وربما من الأشياء الجميلة التي أحبها أيضاً فيه أنه لم يذكرني بها، وظللت أنا الذي أعيدها وأكررها حتى صرخ

بي في يوم ما وطلب إلي ألا أعيدها عليه، لأنها أضحت تذكّره بأيام الآحاد في كنيسة القرية، حيث كان يؤخذ غصباً إلى هناك ليسمع المواعظ من كاهن قبيح الشكل. أنسى القصة لأيام، ثم أعيدها ثانيةً، ويبدأ صراخه من جديد.

في صباح اليوم الثاني بعد الحادثة، وبعد أن خذلنا الخطيب الذي وقف بيننا، وعلّق عليه أيضاً كورسكي من خلال الحادثة قائلاً عنه: "المبشّر في حظيرة الدواب".

تجاوزنا التعليقات بضحكات لم تستمر، وأفقنا في الصباح على صراخ المبشّر، وهو يطلّ من كوة أعلى جدار القبو. صعدنا إلى بقية الكوات وتأملنا المشهد، البحر هادئ وجميل، ويحمل جسم إنسان يميله يميناً وشمالاً، ثم قَلَبه للحظات، وكان الرجل الأسطوري الذي هزم في يوم ما خمسة رجال في شوارع مدريد الخلفية، طافياً مثل خشبةٍ حقيرة متبقية من مركبٍ هبّت عليه عاصفة. نظر الجميع إلى الجسد وتأملوه وهو يبتعد، ودّعوه بعيونهم، وبكى بعضهم، ليس لأنه يعرفه، ولكن البحر كان أرأف وهو يحمله، يحنو عليه ثم يقلبه وكأنه يريد أن يخبر الجميع أنه لن يسلمه للأسماك الملعونة، سيسحبه ويخبّئه في إحدى الجزر البعيدة، لن تراه أعين البحارة ولا أفواه الوحوش، ويدفنه في الرمال هناك.

ذلك اليوم كان من أكثر الأيام حزناً، ووداعاً جديداً على المعتقلين، وداعٌ لا تستطيع أن تحضن فيه من تودعه. يوم كنّا نشيّع بعضنا في فارني، استطعنا أن نتعانق، حتى أولئك الذين لا تعرفهم، يعانقونك بالدور، يتمنون لك حياةً مختلفة بعيدة عن المعتقل، وهم يعلمون أنك

ذاهب إلى آخر أشد قسوةً، ولكنهم يداوون بعضم بقليلٍ من الوهم. وحتى الذين تتخاصم معهم يأتون قبل الأصدقاء، لأنهم استوعبوا جيداً الدروس في فارني، أن من يخرج ربما لن يعود، يفتحون أيديهم ويضمّونك، لا يريدون تركك، إلا بعد أن تستنزف كل ما تحمله من ضغينة تجاههم، ويدعونك بعدها لتكتشف أن الذين كانوا أعداءك من قبل صاروا اليوم أصدقاء حقيقيين. تمسح الدموع التي تنزل وتحني رأسك متّجها إلى الشاحنة، حيث ينتظرك الجميع.

إذن مات الرجل الأسطوري، ورموا بجسده إلى القروش، أولئك البحارة القساة. دوّت الكلمات في رأسي عندما جلس بابلو قربي، صامتاً غارقاً في تأملٍ عميق. لم أره في تلك الحالة إلا في لحظات قليلة. أذكر مرةً في سيّيرا، كنا قد اقتربنا من نهاية الطريق، واكتشفنا أننا محاصرون بالثلج والموت جوعاً، وكان العدو يتقدم تجاهنا. ثلاثة أشياء لم يكن الصراخ أو البكاء ليجدي معها، لكن بابلو صمت يومها وتغيّرت ملامحه، وظلّ متجهماً حتى ونحن نقطع الطريق عابرين الحدود الفرنسية.

في صباح اليوم الثالث من رحيلنا أطلّ علينا بحّارٌ من الباب، نظر إلى الجميع بسخرية، لم يكن معه الحرس، وظل يرقبنا لدقائق ثم نادى على أحدهم وطلب إليه أن يختار ثلاثة أو أربعة معتقلين، ليساعدوا في توزيع الطعام. قبل رحيلنا من الميناء وزّعوا علينا الطعام، وقالوا إنه يكفي ليومين، ولكنه انتهى في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني كان الجميع متعبين ولم يفكّر أحد في الأكل.

ناداني الحارس باسمي واثنين آخرين، كنت أول من صعد السلم،

أردت أن أرى سطح المركب ثانيةً، رغبةٌ تلحّ في استكشاف ما حدث يوم أمس، وإن كان هناك دمٌ بقي على الأرضية، وراحت المخيلة ترسم مشاهد طعنات متكررة وجرّ على السطح، ثم ارتفعتُ ورأيته، لم يكن هناك أي شيء، بدا نظيفاً من أي دم، وحتى وجوه بعض البحارة، الذين التقيتهم وأنا أسير إلى جانب الحارس، لم تحمل العداء لي بالرغم من تجهّمها المتواصل، وللحظات فقط كنا في المطبخ، حملنا علب الطعام وسرنا عائدين، بمعية الحراس. فُتح باب الحظيرة المتنقلة، وسبقت المعتقلين الآخرين في النزول إليها، ولم تمرّ إلا دقائق حتى انتهى كل شيء، وصُدّ الباب في وجوهنا، وبقيت مثل اليوم الأول أراقب العالم من الكوة الصغيرة.

٧

شهران من الانتظار، كان فيهما بابلو في أغلب الأيام مُثاراً، صعب التعامل معه إلا قليلاً، ثم ظهرت سيارة البريد، حاملةً معها الرسائل، وربما كنّا أشدّ سعادة منه ونحن نسمع صوت المنادي على اسمه، أنا والبقية ممن كانوا يقاسموننا الخيمة، التي لم ألبث أن اتّخذت بها مكاناً، وسحبت الأوراق والقلم وبدأت في الترجمة، تاركاً رسالة زوجتي إلى الليل، وهي عادة لازمتني منذ أن كنت في الحرب، إذ أكتب وأقرأ دائماً على ضوء الشموع، أو على المصباح الزيتي. شهران لم أترجم فيهما كلمة، ولم أسمع فيهما لغة فرنسية جيدة، ما عدا بعض الجمل الجميلة، يكتبها الطبيب أحياناً في كراسه، الذي اكتشفته بالصدفة وأنا أنظف مكتبه. سحبت الكرسي إلى الخلف، وحاولت أن أجمع الأوراق المتناثرة تحته، وتملّكتني رغبة في فتح الأدراج، فتحت العلوي ولم يكن هناك إلا نشرات الأدوية، أغلقته ثم امتدت يدي إلى الدرج السفلي وفتحته، وجدت أيضاً كتاباً طبياً ضخماً، بدا لي مدرسياً وأنا أقلّب صفحاته، أسماء طويلة للأمراض وبعض الشروحات عن الأعراض، وحتى أنها امتدت إلى توصيفات

الأدوية، وهممت أن أعيده إلى مكانه لولا أني اكتشفت كراساً صغيراً في مئة صفحة، كنت أملك واحداً مثله، حملته معي من "فارني دارياج"، بنفس اللون وعدد الصفحات، ثم قلبته واكتشفت الرسومات المنظّمة التي تحوي جداول الضرب، وهكذا عدت في لحظة قصيرة إلى سنوات قبل الحرب، تلاميذي يحملون الكراسات وبها تمارين الحساب، ينتظرون بالدور أن أقوم بتصحيحها. حملت كراسة الطبيب بين يدي، وفتحت الصفحة الأولى، قرأت اسمه وعنوان بيته في باريس، وبعض الحكم التي تحثّ على الوحدة والتذمّر من الحياة داخل المجتمع، ثم انتقلت عيناي إلى الصفحة الثانية، رأيت مقاطع شعرية، متأثرة بأسلوب بودلير، تمتد الكآبة من البداية وتعتصر كل الحزن الموجود في الإنسان، ولا تكاد تنتهي منها حتى تشعر بالعدمية التي يعيشها كاتبها، وأسفل الأبيات الشعرية حدّد التاريخ الذي كتبت به. اكتفيت بذلك المقدار من السلبية الذي تسرّب إلى جسدي عبر القصيدة، ولم تتولّد لدي رغبة في أن أنتقل إلى بقية الصفحات، أغلقت الكراسة وأعدتها إلى الدرج، ووضعت الكتاب الطبي أيضاً هناك ثم أغلقته، وقررت أن أغادر الغرفة. وفي اللحظة التي رفعت فيها رأسي إلى أعلى انتبهتُ إليها فوق خزانة الأدوية، كانت آلة راقنة من الحجم الصغير، وحدست بأن هناك مغامرة. خرجت من الغرفة بهدوء، وراقبت الحراس عند الباب، كانوا بعيدين، وحتى الطبيب شعرت أنه سيتأخر في العودة، عدت مسرعاً إلى الغرفة، اعتليت الكرسي وسحبتها من مكانها، وضعتها على المكتب وجلست خلفه، سحبت بعض الأوراق من الدرج،

تأملت الآلة قليلاً، وعدت أتأمل أصابعي، وكأنها اخشوشنت طوال هذه السنوات، وضعت الأوراق أعلاها، وضربت بأصبعي على الحرف الأول، ثم الثاني والثالث، وانتابتني حمّى الحروف، ولم أنتبه إلا وقد نفذت الأوراق. نظرت إليها مندهشاً، اعتقدت أنني كنت أكتب بلا وعي ولكن العنوان تجلّى بوضوح: "بين سييرا وعين الأسرار"، وربما الشيء الذي لم أجد له أيضاً تبريراً هو أنني كنت أكتب بالفرنسية، أربع أو خمس أوراق، وجملاً مرصوفة خلف بعضها. تأملتها ثانيةً، بدت لي غامضة، وربما لو شاهدها السورياليون لقالوا إن هذه القطعة تنتمي إلى أدبهم. سحبت مجموعة ثانية من الأوراق وبدأت في الطقطقة، وازدادت الأصوات ارتفاعاً، وخُيّل إلي أنها امتدت إلى الرواق، وتتقدم أكثر، حتى ذُهلت بالطبيب يقف أمام المكتب، ينظر إلي متفحّصاً، لم تكن نظرة احتقار أو استنكار لما فعلت، ولكنها تنمّ عن مقدار لا يستهان به من الفضول. اقترب دون أن يتفوه بكلمة، وسحب الأوراق من على المكتب، ثم أشعل سيجارة، وبدأ يتمتم بالقراءة، وبعد كل فقرة يلتفت إليّ ثم يعود إلى النص الذي بين يديه، واستمر بتلك الطريقة حتى انتهى من قراءة جميع الأوراق. حينها نظر إلي:

– يبدو أن هناك من يخفي هويته الحقيقية في المعتقل؟!

– ماذا تقصد؟

– أنت كاتب ولا تريد لأحد أن يعرف، ولكن لماذا؟

– هل يُعامل الكُتّاب بطريقة مختلفة؟

– هنا لا أعتقد، ولكن بالنسبة لهم في فيشي فالأمر يختلف إذا

لست يهودياً أو كاتباً تحررياً.

- ولكني لست يهودياً.

- ولكنك كاتب وشاعر أيضاً.

- بعد الهزيمة أصبح الجميع شعراء.

- فعلاً، يستطيع الجمهوريون أن يفخروا بذلك.

آلاف الأسئلة تمرّدتْ في رأسي عن انتماء الطبيب، هل هو مساند للميشي؟ أم أنه من الديغوليين؟ أم أنه بوهيمي يعيش داخل أحلامه القاسية، وحيداً في منفى اختاره بعيداً عن باريس. لم يطل اجتماعنا ذلك اليوم، وكنت دائماً أتذكره كحلم لا كحقيقة حدثت، فلم يلبث طويلاً معي وغادر بعد أن قرر أن يحتفظ بالأوراق، لأنها ستشكّل خطراً إذا ما وقعت في أيدي غرافال، وسمح لي باستعمال الآلة بشرط أن يحتفظ بما أكتب، وكنت في نهاية كل يوم أجلس لساعة خلف الآلة، وبعض الرسائل خرجت من عين أسرار مرقونة، وكانت أيضاً من الانتصارات البسيطة التي ظللت أذكرها لسنوات بعدها، وبقيت نقاطاً مضيئة في ظلمة ليلٍ طويل قبلها.

عندما بسطت رسالةً ماري أمامي تفاجأتُ بما فيها، اختفت عبارات الشوق الملتهبة وحلّت مكانها جملٌ رتيبة، لا تدلّ على الحب الذي كان في بعض المرات يوشك أن يحرق المسافة التي بينهما، وبعد أن كانت تقول حبيبي، صارت عبارات الصداقة هي التي تُسيّر منطق الكلمات بعدها، إضافةً إلى الخبر الذي لم أعرف كيف أتصرف تجاهه، وكيف علي أن أصيغه. كنت أقرأ وأحاول إيجاد جمل موازية في الإسبانية، وأراقب وجه بابلو المزهو بالرسالة،

كان يمسك المظروف بيده، يستنشق منه الرائحة، ويغمض عينيه مفكراً فيها، مثل عاشقٍ صغير يحمل صورة حبيبته، ويفكر في اليوم الذي سيخرج فيه من المعتقل ويسير إليها في المنطقة الحرة، وكأن بابلو لم يتأمل الظرف جيداً، ومن أي مكان أُرسل، وحتى إنه لم يحاول أن يجد مبرراً في ذهنه لسبب التأخر، بينما كنت أوازي ما كان موجوداً في نص الرسالة، وبما كُتب على المظروف، وللحظة اعتقدت أنه سيتأقلم، وأنها لن تكون مثل خيبة سيّيرا وما تبعها من خيبات أخرى.

كتبت ماري تقول لصديقها، الذي كان قبل شهرين حبيبها، إنها تكتب له من الطائرة حيث قررت ووالداها الرحيل إلى أميركا، وهناك ستتعالج لأنها اكتشفت أن الأطباء الفرنسيين عجزوا أمام علتها، وقد بدأت تضمر شيئاً فشيئاً، وبدأ جسمها ينهار، ولم يعد باستطاعته أن يتحمل روحها المتوثبة للحياة. شرحت حالات المرض بإيغالٍ في الوصف. توقفتُ، تنهّدتُ من التصورات التي بنيتها متذكّراً الحالات النفسية التي يمرّ بها المرضى، وعجزتُ للحظات عن الترجمة، وكدت أيأس مما حملته الرسالة، ثم أرى ثلاث نقاط وعدة فواصل، ثم أجدني أمام حالة أخرى تقول فيها: "غفوت وأنا أكتب لك، وحين أرادت أمي أن توقظني لم أفق، صرخت بينما كنا في الطائرة، اعتقدت أنني فارقت الحياة، فزع والدي وأسرع يبحث عن طبيب، ثم أفقت فجأةً، وجدت الطبيب يجلس قربي، وبعد أن قرأ بعض الملاحظات عن علتي قال إن هذه الحالة من أعراض المرض، كان يقصد الإغفاء المفاجئ وحتى الاستيقاظ المفاجئ. أترى أي حدّ

وصلت إليه صديقي بابلو؟".

لم أعرف كيف أشرح الأمر لبابلو، وكيف أنقل له ما حدث، أوشكت للحظات أنا أكتب رسالةً وهمية، مثل بقية الرسائل، ولم يكن ذلك صعباً بالنسبة لي، ولكني فكرت في الأيام القادمة حين يكتشف ما فعلته به، وتخيّلت حجم الخيبة التي سيُمنى بها، وهو يطالعني. فزعت من الفكرة، وطردتها من رأسي، وأشفقت عليه من الأيام الآتية، وكيف سنواجهها معاً، خصوصاً وأن كافارولي يلحّ كل يوم، وأن الشهر الأخير أكثر الأشهر إثارةً، إذ دخلت مجموعة جديدة إلى المعتقل، أغلبها من الإيطاليين، وربما هي الأعنف، ولم تلبث إلا أيام حتى قادوا منها ستة من الشباب إلى السجن في كافارولي، وبدأت كذلك الأعمال في توسيع المعتقل، وبدأنا في بناء الأكواخ التي سننتقل إليها فيما بعد، ونترك لهؤلاء الإيطاليين الجدد خيامنا.

وقبل أن تظلم كنت أنسخ الرسالة لبابلو، الذي ظلّ يلحّ عليّ حتى جعلني أفقد أعصابي. حاولت في البداية أن أمهّد له، وأن أفتعل بعض المقدمات قبل أن أزوّده بالترجمة. وقفت واقترحت عليه السير بين الخيام، ومررنا على كورسكي واقفاً عند مدخل خيمته، يراقب الجهة الشرقية حيث توجهنا، وبعد خطوات كنا بجانب الأسلاك الشائكة، نراقب المدى أسفل المعتقل، وسفح الجبل حيث كان المسلمون يقبرون كل يوم ميتاً جديداً. نظرت إلى بابلو الذي وقف يقابلني:

– أتخشى الموت في المعتقل يا بابلو؟

– قبل ماري لم أكن أخشاه، والآن... لا أدري بالضبط، أشعر أنني يجب أن أخرج على الأقل من أجلها.

- وسييّرا، العودة والانتقام، أتبخّرت الأحلام فجأةً؟

- ألا ترى يا مانويل إلامَ آلت الأمور، أم أنك أعمى؟! إنها إفريقيا، أم أنك لا تعرف عدد الذين ماتوا هنا، منذ وصولنا؟! أأعطيك أسماءهم، أم أذهب بك إلى المقبرة، ولتقرأ شواهد قبورهم؟ صديقي مانويل، إن من تبقّى من سيّيرا سيُدفن في "عين الأسرار"، تأكّد من ذلك.

- إذن تخلّيت عن برشلونة...؟

- أنت تمزح. كيف أتخلى عنها؟ أأستطيع ذلك؟!! هذا أمر جنوني، ليس مثله إلا الانتحار بطلقة أو بالقفز من أعلى جبل، هذا معنى كلامك يا مانويل.

- وماري، هل تستطيع أن تتخلى عنها في يوم ما؟

- سأبوح لك بسرٍّ يبدو لي غريباً ومضحكاً. حين أفكّر في ماري تنتابني شوارع برشلونة ومطر وثلوج سييرا، وأرى وجهها مثل الهالة بين كل تلك التفاصيل.

مثل التعابير الطفولية، وصف لي بابلو حبه، وأنا الذي اكتشفت أن كلماته ربما كانت أبلغ وصف، وأن الرسائل لم تكن لتقول أعمق مما قال، وهكذا سلّمته الرسالة، ثم عدت وتركته جالساً هناك فوق صخرة يراقب الشرق ويفكّ حروف الرسالة.

كم دام جلوسه هناك؟ وكم امتد الوقت يستطيل بين المدى السهبي وبين الخيام؟ حيث التقيت كورسكي ذاهباً باتجاهه، أمسكته من يده وعدت به. لم يفهم في البداية، ولكنني في الطريق قصصت عليه ما حدث. صمت وعاد بوجهه إلى حيث يجلس بابلو، شعرت أنه أراد أن يحمل عنه جزءاً من خيبته. لم أؤمن بالتهوين عن الناس في

فجائعهم بطريقة مباشرة، لم أعتقد بذلك، كنت دائماً أشعر أنه يزيد من أحزانهم، وأحدّث نفسي بأنهم يجب أن يكونوا وحيدين مع أنفسهم، لأن لحظة السقوط تكون غامضة بالنسبة للذين يعيشونها، وحواسهم وحدها هي التي يمكن أن تجد الطريق إلى السكينة، لذا تركت بابلو وحيداً هناك عند الأسلاك، يرسم خطوطاً على الأرض، ويحاول قراءتها.

ومع وصولنا إلى الخيام حاول كورسكي أن يعود به، وفي لحظة ما استوعب ما حاولتُ إقناعه به، عاد إلى خيمته، وجلست أفكّر، ولم أستطع حتى أن أقرأ رسالة زوجتي في الليل، وخالفت عاداتي القديمة وقرأتها في العيادة.

٨

لم تكن السماء مربعة الشكل، بالرغم من أن الكوّة كانت تحاول أن تحدّ من رؤيتنا وتريدنا أن نرى ما تتيحه لنا فقط، وربما أيضاً كنت الوحيد الذي فكرت بتلك الخواطر، وصعدت السلم مجترئاً على إرادتها، ثم اقتربت منها، ورأيت ما رأيت. بالتأكيد اختلفت الرؤية، وبدا جزءٌ لا يستهان به من السماء، وحتى جزءٌ من البحر، وتقريباً السطح بأكمله، واستطعت أن أراقب كل شيء من هناك، بينما حاول الجميع أن يجدوا مكاناً نظيفاً ليغفوا عليه، أو ربما ليطرحوا أحزانهم فيه.

في الصباح كانت الحركة أعلى المركب عادية، بعض العمال يحملون الدلاء وينظفون السطح من الجهة الثانية، وللحظة مرّ شخص لم أستطع أن أتكهن وظيفته، كان لباسه مختلفاً عن لباس البحارة، فقد كان يرتدي بدلة سوداء بأزرار نحاسية، ويحمل غليوناً منطفئاً في يده، يتفاعل معه كأنه مشتعل يخرج الدخان منه، وينفثه في الهواء. يمرّ البحارة قربه مظهرين له الاحترام، يحيّونه ثم يعودون إلى أعمالهم. للحظة بدا لي قبطاناً، ولكنني كنت قد رأيت القبطان الحقيقي لهذا

المركب، أما الشخص الذي رأيته فقد بدا مركزه أعلى بكثير، ربما كان سفيراً. وهكذا لم أصل إلى أي نتيجة، ووددت لو كان كورسكي قربي ربما ليسعفني بحكمته ويعرّفني بطبيعة شخصيته. عدت بوجهي إلى الأسفل أبحث عنه، فلم أره، لكني رأيت بابلو يتكلم إلى الشاب الروسي الذي التقيته في طريق "ريفيسالت"، والذي ما إن رآني حتى اقترب من السلم وصعد الدرجات بخفة لاعب جمباز، أطلّ من الكوة وارتحلت عيناه تسكتشف المكان حتى وقعت على الرجل صاحب الغليون، فرك عينيه وأعاد النظر، وتكلم بلغة إسبانية ركيكة:

– مستحيل! ماذا يفعل هذا الشخص هنا؟

– عن أي شخص تتكلم؟

– ذلك الذي هناك، صاحب الغليون.

– أتعرفه؟

– أجل، كان معنا في الحزب، وهو من نظم سيرنا إلى إسبانيا.

– لم أفهم، اشرح لي.

– يوم قررنا نحن الطلبة المنضمين إلى الحزب الشيوعي المشاركة في الحرب، كان ذلك الشخص هو من أعدّ كل شيء تقريباً، هو الذي وضع القوائم وحتى من دبّر أمر الشاحنات التي عبرت بنا الحدود، وعند عودتنا لم نره، أو بالأحرى لم يوافق على استقبالنا، وقالوا لنا إننا أصبحنا غير مرحَّبٍ بنا في الحزب، لأسباب غير معروفة.

– ولكن لأي غرض يسافر شيوعي مرموق مثله في مركب تجاري يحمل معتقلين.

– لا أدري، ولكن ربما يكون مالكه.

كان ذلك التفسير الوحيد لكل الأسئلة التي طُرحت، ولم تمرّ إلا دقائق حتى وقف القبطان إلى جانبه، ومن بعض الكلمات اتّضح كل شيء، وكان بالفعل هو صاحب المركب، ومن حديثهما علمنا أنه لم يبقَ الكثير كي نصل، وبالضبط مع حلول المساء، ولكن الشيء الذي لم أفهمه في ذلك الحوار أنهما لم يشيرا لأي موضوع يخصّ المعتقلين في القبو، بل كانت جُلّ المواضيع عن الشحنة الجديدة التي سيعودون بها.

عاد الشاب الروسي إلى أسفل القبو حاملاً خيبته ونادماً على صعوده إلى الكوة، وبقيت أراقب المكان وحيداً، بعد أن غادر القبطان وصاحب المركب، وبدأ الماء يتدفق إلى داخل القبو مما جعلني أبتعد قليلاً عن الكوة، ولحسن الحظ أن البحار الذي ينظّف السطح مرّ سريعاً من هناك. وفي السكون الذي امتد، راقبت السحابات التي تتشكّل فوق المركب، وكيف تفرّقها الريح، وبدا لي مشهداً مألوفاً، مثل الحياة التي أعيشها، كلما أجتمع فيها مع الذين أحبهم تفرّقني ريحٌ ما عنهم. الحرب فرقتني عن زوجتي، ثم اجتمعتُ بها ثانيةً في فرنسا، وفرقني عنها فارني، وحتى حين ألفت بعض الأصدقاء في فارني، فرقتنا عنهم إفريقيا. ماذا بقي لنا بعد هذا، غير ساعات قليلة من الحياة، وربما في أي لحظة، مثلما قال البولوني، سنكون طعاماً للأسماك، كما فعلوا بالرجل الأسطوري الذي هزم خمسة رجال في شوارع مدريد الخلفية، ولكن أسماك البحر المتوسط هزمته. انتبهت إلى نفسي لحظتها وإلى السير اللامنطقي الذي كنت أسوق به أفكاري، ولم أنتبه إلى المقدار اللامعقول من السلبية الذي تمدد في

رأسي مثل سحابة. انتفضت من مكاني وقررت طرد كل هواجسي، ورفعت رأسي وإذا بالظلام قد اكتسح العالم، وأضحت الكوة بالفعل لا تبيح أي شيء إلا أضواء بعيدة تذكرت أن القبطان قد قال إننا سنراها مع الظلام، ولم تكن إلا أضواء الميناء.

فتحت علبة التونة وسحبت القليل من الخبز، وحاولت أن آكل، وأن أتغاضى عن الروائح التي امتزجت بالسمك الذي أمامي، تنتشر في كل مكان، تكتشفها في جسمك، في لباسك، في من يكلمك، وتحولنا فجأةً إلى أبقار حقيقية داخل القبو، عندما رفضوا أن يخرجونا الواحد تلو الآخر لقضاء حوائجنا، استمرّ البعض في المقاومة، وقرر آخرون أن يقوموا به في القبو، وزاد ذلك من انتشار الرائحة العفنة، ثم استسلم الجميع للخدر، ولم يفيقوا إلا صباحاً على نداء الحراس بعد أن فتح باب القبو.

نادوا علينا بالأسماء، من يسمع اسمه يتسلّق السلم، يوضع في يده الحديد ثم يلتحق بالصف، وبعد أن تمّت الصفوف سرنا ببطء إلى جانب المركب، وتأملنا ميناء الجزائر. لم أرَ صاحب المركب في اللحظة التي كنا ننزل فيها، خمنت أنه قضى الليلة في فندق ما بالجزائر، بما أن المركب وصل مع الظلمة، ولكن الشاب الروسي همس لي ونحن على الرصيف أنه رآه يدخن غليونه خارجاً من مقصورة القبطان. ولم يطل مكوثنا في الرصيف، إذ وصلت شاحنات أخرى مثل التي سارت بنا من فارني، شُحِنّا فيها، وأخذت تقطع شوارع مدينة الجزائر، وفي كل منعطف أقرأ أسماء الشوارع من الألواح المنصوبة بها، أغلبها لشخصيات فرنسية مشهورة. شعرت

أننا نصعد إلى أعلى، من خلال المنعطفات المرتفعة، ولم تكن سوى مدينة منصوبة على سفوح الجبال مختنقة بها، ولكنها مع ذلك شعبية تضجّ بها الحياة، وأصوات الناس التي ترتفع في كل مكان، محدثةً ضجيجاً متواصلاً في الشوارع التي سرنا بها، وكلما ازدادت الطريق طولاً ازدادت متعتي في رؤية المشاهد الجديدة. بعض النساء يخفين وجوههن وراء براقع، وبعضهن يظهرنها. وجوه المغاربة تشبه إلى حدٍّ بعيد وجوه الإسبان، دون اختلافات كثيرة، ولا تباينات من خلال الأجسام النحيلة. وبعد أن تجاوزنا بستاناً واسعاً، صحبتنا أشجاره مسافةً طويلة، انعطفت الشاحنة إلى طريق أقل اتساعاً، تجاوزناه إلى حيٍّ قديم، توقفت فيه الشاحنات، وأنزلونا منها.

بصعوبة كنا نسير بين الأطفال الذين كانوا يحوّلون وجوههم بين مراقبتنا وبين الألعاب التي يديرونها بينهم، ثم صعدنا أدراجاً إلى غرفة واسعة ونظيفة، وفرقوا البقية إلى غرف أخرى. احتللنا أنا وكورسكي وبابلو الغرفة نفسها، وإلى جانبنا أغلبية من الإسبان، ولكنّا لم نرَ الشاب الروسي، خمّنتُ أنهم ذهبوا به إلى الغرفة الثانية، ولم أنتبه إلى الجميع الذين أخذتهم غلالة النوم، دقائق وشعرت أنا الآخر بإغراءاته التي استبدت وعبرت بي الحاجز الشفيف إلى عالم الأحلام.

ترتفع أصوات الأطفال، ويلجون بخفة إلى الأحلام، أقف بينهم، وهم ينادونني: "أبي... أبي"، وأنا مشدوه بعددهم، كانوا كثيرين، فكيف أكون لهم أباً، أنا الذي لم أملك ولداً واحداً! يزداد ضجيجهم من حولي، "أبي... أبي"، ويقتربون مني، يتشبثون بساقيّ، بعضهم يمسك يدي، ويدورون حولي مرددين نفس الكلمة التي لم أجرّبها

أبداً، ثم ظهرت زوجتي باتريسيا، تقترب شيئاً فشيئاً حتى بلغت المكان الذي كنت محاطاً فيه بالأطفال، ثم بدأت تشير إليهم واحداً واحداً وتعدّهم، وتكررت حركاتها بهوس، ازداد استغرابي لها، كما ازدادت سرعتهم، وهم يدورون حولي. شعرتُ بدوارٍ مفاجئ وسقطت في المكان نفسه، وحين أفقت كنت في الغرفة، وضجيج الأطفال العرب يمتد إلى الداخل عبر النافذة. تفقدتُ البقية، مازالوا يغوصون في دوامة أحلامهم، وقفتُ وسرت إلى النافذة، من هناك شاهدتهم وهم يركضون خلف بعضهم بعضاً ويصدرون أصواتاً عالية، ثم يقفزون من مكان إلى آخر بنفس النشاط والحياة. حاولت أن أقارن بين هؤلاء وأولئك الذين احتلوا الحلم، لم يختلفوا عنهم كثيراً، ولكني لم أجد مبرراً لخيال زوجتي، ولماذا أشارت إليهم وعدّتهم. للحظة لم أفهم أي شيء، ثم اتّضحت الرؤيا، وانفجر سؤالها في وجهي:

- أريد أن أعرف لماذا لا تريد الأطفال؟
- لا أريد لأطفالي أن يكونوا وقوداً للحرب.
- ولكنها لم تنشب بعد.
- أنا متأكد أنها ستنشب.

لأكثر من سنة ظلت حواراتنا بتلك الطريقة، حتى أوشكتُ أن أخسر باتريسيا بسبب الأطفال، وهي مقتنعة بأني أكرههم، وأن الحجج التي أعطيتها ليست مقنعة. وفي أيام الحرب عدنا مثلما في السابق، ربما لأنها اقتنعت أنني على حق، وهي ترى مئات منهم يموتون تحت القنابل وانهيار المباني. بعد أن انضمّت إلى الصليب

الأحمر كانت تراسلني وأنا في الجبهة، والتقينا في مرات قليلة، وهكذا انتهت الحرب وغادرت إلى فرنسا مع مجموعة من الصليب الأحمر الدولي عندما عرفت أنني هناك، التقينا ومكثنا ثلاثة أشهر في فندق في مرسيليا، وحين أوقفوني وساروا بي إلى فارني، سارت هي إلى باريس، وبقيت أحلامنا معلقة بالأطفال، مع أنه قد مرّ على زواجنا ست سنوات، وربما كان ابني في سن هؤلاء، سيعرف كيف يناديني بأبي ويطلب مني أن أعود إلى البيت مبكراً، لأنه يريدني أن آخذه إلى مكان ما في إسبانيا لم تصبه الحرائق، أعده وأنا أعرف أنني لن أفي بوعدي، وعندما يكتشف حيلتي يتشبّث برجلي ويبدأ في تكرار الكلمة "أبي... أبي"، وتلج باتريسيا الغرفة، تناديه وتعانقه بحنوّ، وتسير به إلى حيث يريد، بين الحرائق، ويغيبان هناك.

لم أعتقد أن الأمر يمتد إلى ذلك العمق بداخلي، يغوص إلى الغور، حيث كان جرح باتريسيا يزداد اتساعاً. شعرت بخيبة كثيفة ومظلمة تتسلل إلى جسدي، وانتقل إليّ ما حملته من ألم ولوعة، وهي ترى الرجل الوحيد الذي أحبته، والذي أرادت أن يكون لها طفل منه، يرفض بشدة ويرى في الأولاد انتحاراً. لم أجد مبررا لرفضي لحظتها، وبقيت مستغرباً كيف استطاعت هي أن تجد مبرراً للبقاء معي. أغلقت النافذة وعدت إلى مكاني محاولاً النوم، ولكني كلّما أفكر في الأحلام أفتح عينيّ بشدة، وأراقب الشقوق التي تستطيل عبر جدار الغرفة، أتابعها وأتأملها بدقة، ثم فجأةً يغيب كل شيء، وأكتشف أنني غفوت أكثر من ساعة، كان البياض فيها حليفي.

٩

أين غاب بابلو؟ بحثت عنه طوال الصباح ولم أجده، فتشت بين الخيام ولم يكن أيضاً هناك، وتراءت لي الأسلاك من بعيد، تفضي إلى فراغ رهيب خلفها. إذن إلى أين سار؟ هل تراه فرّ متسلقاً الأسلاك؟ لا أعتقد أنه يفعلها، ولم تغادرني حيرتي وأسئلتي حتى وأنا في العيادة، أوشكت أن أسأل الطبيب وترددت إذ لم يكن يحب التكلم عن أي شيء يخص المعتقل، وظللت طوال اليوم أكرر الأسئلة نفسها في رأسي. في منتصف النهار وقفت مع كورسكي عند المطبخ ورجوته أن يفكر معي في ما حدث، وهو الذي لم يفارقني بالأمس إلا بعد أن عرف كل شيء عن بابلو، قد تسعفنا حكمته. كان كل شيء بالنسبة لي مربكاً، ولم أستطع التفكير بوضوح، تشتت كل الرؤى دفعةً واحدة وعجزت أن أتبع أي طريق أبحث فيه. بالنسبة للجميع في الخيمة لم تكن الليلة السابقة لتختلف. جلست أفكر في مضمون الرسالة، وردة فعل بابلو، أما الثلاثة الإسبان فكانوا يلعبون الدومينو الذي صنعوه في الورشة وأتوا به للتسلية، وظل العجوز في مكانه يراقب اللاعبين، ثم يدير وجهه تجاهي ويطلب إلي الانضمام إليهم ليكتمل

العدد. وبالرغم من السنة التي قضيتها مع هؤلاء الأربعة، لكني لم أعرف بالضبط كيف سارت حياتهم خارج المعتقل، واكتفيت ببابلو. شعرت أنها أنانية مني، مع أني لم أبخل على أحد بالمساعدة، سواء كان داخل الخيمة أو خارجها، وكانت الحفلة شاهدة على علاقاتي بالجميع.

ولكن لماذا أشعر أنني في الخيمة كنت دوماً محسوباً على بابلو، وكأني لصيق به، ولم يرنا الجميع إلا شخصاً واحداً. يستبدّ بي هذا الشعور أحياناً، لم يعكسه وجه العجوز بقدر ما ظهر جلياً في وجوه الإسبان الثلاثة، وكأنها تقول: "ماذا تريد أن تقول أيها المتكبّر وأنت تتقرّب من مضطهديك؟ أتعتقد أنهم سيمنحونك الحرية حين تشي بنا؟" أتوقف عن التفكير بهم وبكلماتهم، ثم أعود وأتساءل عن معنى الوشاية، وماذا فعلوا حتى أشي بهم. يستيقظون صباحاً ويسيرون في جماعات إلى الورش، ويعودون في المساء منهكين، يدخنون السجائر، إن وجدت، مع القهوة، ثم يلعبون أدوار دومينو، وينامون. اليوميات نفسها تتكرر بالنسبة للجميع، قليل هم من يصنعون الاستثناء هنا، وبابلو كان من بينهم، وحتى البولوني، وربما أنا وبعض الروس، وحتى الإيطاليون، كانوا أجرأنا خلقاً لعادات جديدة.

دعاني العجوز ثانيةً إلى اللعب ورفضت، ازددت حدةً بعد أن فكرت في الإسبان الثلاثة على ذلك النحو، ولم أفهم لماذا انحدرتُ إلى الهوة بسرعة. طردت كل الافكار اللعينة من رأسي وتقدمت منهم، جلست لأشاركهم اللعب، وبعد أن وزعت القطع، قرأت في النقاط أشياء غير الأرقام، ورأيت أيام الحرب جلية وواضحة أمامي،

في كل نداء من حليفي، وكل صرخة من العدو، كانت تعني مكسباً جديداً أو خسارةً فادحة، ثم أُفاجأ بأني أمسك القطعة الخطأ، إنها التي تموت في يدك، ولن تكتشفها إلا بعد أن يصرخ من يضرب الأرضية بيده، ثم تغلق اللعبة، ويرمى الرابح قطعة الفوز المثالي خاليةً من الأرقام، ويضحك حتى تنفجر الخيمة. بالتأكيد لن أحزن، ولن أكتب مرثية لهذه اللعبة، لأنني قد كتبتها في يوم ما، ورثيت نفسي في الحقيقة، عندما أغلقت اللعبة قبل سنوات، على إسبانيا، ونحن أخذنا القطعة الفارغة وأخذ فرانكو بقية القطع. هل يفهم هؤلاء الإسبان الثلاثة أن الطريقة التي سارت بها اللعبة هذه الليلة كانت مماثلة لما حدث؟ لا أعتقد ذلك، كان يهمهم عدد النقاط السود فقط. وهكذا عدت تحت نظرات العجوز، وكأنه ندم على دعوته لي، سحب نفسه من تحت غطائه، وسار إلى حيث كنت مستلقياً وجلس إلى جانبي:

- أتعتقد أن بابلو سيتجاوزها؟

- يتجاوز ماذا؟!

- كل شيء واضح يا مانويل، نحن في خيمة صغيرة منذ أشهر، كل شيء واضح، حتى هؤلاء لاحظوا أن شيئاً ما قد حدث.

- لا أدري؟ لقد خلّفته هناك عند الأسلاك.

- ولكن الحرس لن يدعوه يبقى هناك حتى الظلمة، وها هي قد أظلمت منذ ساعة.

- صحيح، كيف لم أنتبه إلى هذا.

قلت ذاك وخرجت مسرعاً من الخيمة، أردت أن أركض حتى أبلغ نهاية الأسلاك، ولكن ما إن تجاوزت الخيمة الأخيرة حتى وقف

الحارس أمامي مشهراً سلاحه في وجهي، وأمرني بالعودة. حاولت أن أشرح له، وخرجت بعض الكلمات غير مرتّبة، ولكنه كان صارماً وأعاد نفس الجملة: "عد إلى خيمتك"، فعدت إلى خيمتي، وجدت العجوز في انتظاري، بوجهه المتسائل عمّا حدث. سحبت الغطاء وحاولت ألاّ أفكر في بابلو، وأقنعت نفسي أنه قضى ليلته في خيمة أخرى، بين مجموعة من الإسبان الذين شغلوا خياماً كثيرة، وليس صعباً أن يقضي الليلة عند أحدهم، ولكن شيئاً ما هجس أنه لم يفعل ذلك، وأنه يفضّل النوم في الخلاء على أن ينام عند أحدهم. وقفت وقررت العودة إلى الحارس ثانيةً، ولن أكون وحيداً، سيذهب معي كورسكي، وربما الإسبان الثلاثة، وبعض البولونيين الآخرين. وكأن العجوز حدس بما فكرت فيه، قال: "اجلس، إنهم سيكونون أيضاً كثراً هناك، تأكد أن الحارس سينادي أصدقاءه، وربما اتّهموك بمحاولة الفرار، وهكذا ستكون رصاصاتهم هي البديل عن الجواب". عدت إلى مكاني، ولم تغادرني هواجسي إلا بعد أن غفوت. لم تكن هناك أحلام. عندما استيقظت شعرت بالملوحة في فمي، وأول شخص ناديت باسمه كان بابلو، وانطلقت عيناي تبحثان عنه في الخيمة، لم يكن هناك، وسألت الجميع حينها إن عاد أثناء نومي، وكانت إجاباتهم أنهم لم يروه منذ أمس.

بعد أن افترقت عن كورسكي عدت إلى العيادة، لم أجد الطبيب هناك، بحثت في جيبي الداخلي عن سيجارة، واكتشفت رسالة زوجتي هناك، وأنني لم أتفقدها منذ أن خبأتها بالأمس، تنهدت بعمق وقلت: "ماذا فعلت بي يا بابلو؟ أنسيتني حتى زوجتي". جلست

إلى مكتب الطبيب وفتحت الرسالة، وقرأت فيها ما زاد من حزني، باتريسيا تركت باريس وتفكّر في العودة إلى إسبانيا، وهي تعلم أن اسمها مسجّل في قوائم الفاشيست، لا أدري أي جنون ركبها بعد أن تركت مرسيليا.

قبل شهر قالت إنها ربما ستهاجر إلى المكسيك، ثم تقول اليوم إنها ستعود إلى الصليب الأحمر الإسباني، وهل بقيت هناك صلبان حقيقية؟ لم يتركوا الشيء قداسته، لقد لوثوا كل شيء. بدت مقتنعةً بما ستقدم عليه، وكنت عصبياً وأنا أقرأ الرسالة، أكثر من المرات السابقة، وفكرت أن أكتب الرد لحظتها، ولكني تمهلت ونزلت عليّ سكينة كورسكية، لا أدري من أي نافذة تسللت. ثنيت الرسالة وأعدتها إلى جيبي، إذ لم يكن من المعقول أن أكتب وأنا مثار، وأمام قرارات زوجتي كان التمهل والحكمة هو الوسيلة الوحيدة. وقفت وعدت أعدل من مكان الكرسي، ونظفت المكان ثانيةً، وفي لحظات وصل بيير ووقف إلى جانبي، يتفحص المكان كعادته، ويرى إن كانت هناك أوراق جديدة قد قمت بكتابتها. لم يسألني بطريقة مباشرة، ولكن عيناه كانتا تبوحان بكل شيء وتطرحان الأسئلة عن بقية القصة، التي بدأت ولكنها لم تكتمل. حملت نفسي إلى الغرفة الثانية حيث كان ينتظرني ثلاثة من المعتقلين، يريدون رؤية الطبيب، أدخلتهم الواحد تلو الآخر، فحص اثنين منهما، ومدّهما بالدواء، أما المريض الثالث فاضطر إلى إرساله إلى المستشفى العسكري بالمدينة. وفي المساء عندما جلست إلى الآلة الراقنة. وصلت سيارة المستشفى وأخذت المريض، ولم يعد بعدها. سألت عنه الطبيب فقال إنهم أخذوه إلى

معتقل آخر. لا أدري إن صدقني يومها القول أم أنه أشفق من قوله إنه قد مات في الطريق، وربما قد رموا جثته في الوادي أسفل المعتقل، حيث كنا بداية مقامنا نحمل منه الماء إلى الخيام.

حين عاد الطبيب إلى العيادة ليأخذ الأوراق تجرّأتُ وسألته عن بابلو. دخل إلى الغرفة بعد أن غادرت السيارة، وجلس أمامي يراقب طريقة كتابتي، وبدا له أنني قد تأقلمت بسرعة، وكلما أخوض معه حواراً تنتابني حيرة: أكان يتكلم بصدق أم أنه تعلم كيف يخدع من حوله؟ ثمة أشياء غير مريحة في جمله، ربما حذرٌ مصطنع نمّته عزلته بعيداً عن المدينة، وربما ذلك هو النظام الذي تفرضه الإدارة، وحتماً لم أكن لأقتنع بالفرضية الأخيرة إذا ما تعلق الأمر بغرافال، الذي لم يعرف أي نظام سوى القسوة.

دخّن سيجارتين بعد أن فرغت من الكتابة، ثم سلّمته الأوراق وهو يهمّ بالمغادرة، وحين وصل إلى الباب استجمعت شجاعتي وسألته:

– أتعرف شيئا عن بابلو؟

صمت ولم يجبني، وكأنه فكّر في شيء ما، لم أستطع أن أتكهنه من ملامحه وهو يلتفت إلي، ثم وهو يقترب مني:

– ومن بابلو هذا؟

– إنه صديقي، وهو يقاسمني الخيمة أيضاً.

– وما به؟

– اختفى بالأمس، ولم أجده في أي مكان.

– أسألت عنه غرافال؟

– لا لم أسأله، لأنه لم يقم بالمناداة اليوم.

– هذا أحسن. يجب ألا تسأله.

– لماذا؟

– حتما سيتّهمك بالتورط معه.

– ولكن ما الذي فعله بابلو؟

– لقد فرّ صديقك، ويجب ألاّ يعرف أحد بهذا وإلا ستتعرض أنت للخطر، ستذهب إلى كافارولي، وربما لن تعود.

– وهل وجدوه؟

– لا لم يجدوه، ولا مزيد من الأسئلة.

حمل الطبيب الأوراق ومضى خارجاً من العيادة، وخلّف قلبي ينوس مثل بندول. أعيد كلماته وأحاول استيعابها، بابلو فرّ من ربوة الريح، قفز من فوق الأسلاك الشائكة، متجاوزاً كل الحراس. ماذا يريد أن يقول ذلك الأناركي العنيد؟ يتحدى كل الحراس هنا، والجنود هناك، خارجاً في جلفا، والمنتشرين في كل مكان في هذه المستعمرة الواسعة. المئات تحدّاهم بابلو، وليس خمسة رجال فقط، مثلما فعل الرجل الأسطوري، وكأنه يثبت للجميع قوته. لحظتها تذكرت الحوار الذي دار بيننا، وإجابته الصارمة: "أعرف... ولكنه ليس أشرف مني". قلت: "إذن فعلها"، وحملت نفسي إلى الخيمة، وشعرت وأنا عائد أني لا أريد أن أصل إليها. وهي الأخرى بادلتني السأم، ما إن تتبدّى حتى يُهيّأ لي أنها تنأى بعيداً تجاه الشرق، ولم أكن مستعداً للمغامرة. بابلو اختار طريقه منذ البداية، بالتأكيد كان أشجعنا، وانحدر دون خوف من ربوة الريح.

١٠

ظلت أصوات الأطفال تشتعل في رأسي ليومين، وفي صباح اليوم الثالث، سمعت وقع أقدام على الدرج، تقترب مع كل ثانية، إلى أن فُتح الباب، ووقف حراسٌ عرب يطالعوننا بعيونهم، ولباسهم المختلف، للحظات ثم تنحوا عن الباب، ودخل كهل في لباس عسكري، تفرّس في وجوه الجميع، وسحب ورقة من جيبه، ودوّن أسماءنا جميعاً فيها، ثم غادر وتبعه حارسان، وتولّت البقية إنزالنا إلى الأسفل. اعتقدت، حين وقفت على الرصيف، أن الجميع سيلحقون بنا، ولكني اكتشفت أنهم سبقونا، وأنني والذين قاسموني الغرفة سنؤخذ إلى جلفا، ويسير آخرون إلى وهران، ولم أعرف إلى أين سيأخذون البقية، ببساطة سمعت همس المعتقلين، ماذا تعني جلفا؟ وحتى وهران؟ ولماذا كنت أعيد ما حدث منذ أن كنا في فارني، ثم طريق "ريفيسالت"، والميناء، وجلفا التي ستكون نهاية الطريق. الحارس العربي أسعفنا بالمعلومة، ولكنها لم تعنِ أي شيء عندما لم يعرف أحد المكان، وكيف هو؟ مثل فارني؟ ولم تصلني أي إجابة من الحارس، انشغل مع معتقل آخر، يفاوضه من أجل شراء علبة

سجائر. قبل أن ألتفت لم أعتقد أنه يمكنك إبرام صفقة مع الحراس العرب، فالجنود الفرنسيون كانوا عديمي الفائدة إذا ما تعلق الأمر بالخدمة، يديرون وجوههم إلى الضباط، وكأنهم يقولون لك: "اذهب إليهم، هم المسؤولون، لا نريد أن نتورط". ولكن العرب أكثر ليناً، على الأقل كانوا يستطيعون أن يأخذوا ربحاً على خدماتهم. راقبت المعتقل الذي لم يطل وقوفه مع الحارس، وسلّمه الفرنكات، وقبل أن يهمّ مغادراً امتدت يدي إليه، وسلّمته أيضاً بعض الفرنكات وطلبت إليه ما أريد. وقبل أن يكملوا تنظيمنا، ثم يعيدوا النداء على الأسماء، عاد الحارس ومعه حاجاتنا. وضعت الكيس الصغير بين ثيابي، وسرت في الصف جارّاً حقائبي إلى أن بلغت الشاحنة. قبل أن أصعد رميت الحقائب هناك، وكنا الأوائل الذين غادروا الحي.

لمسافةٍ غير قصيرة سرنا عبر الشوارع الضاجّة بالناس، والكل فيها متشابهون، تجاوزناهم إلى شوارع واسعة، حتى بلغنا محطة القطار، وتوقفت الشاحنة، أُنزلنا منها، سمحوا لنا بالجلوس على الرصيف، أخذ كورسكي مكاناً قربي، وجلس بابلو القرفصاء على الجانب الآخر، وسحبت الكيس الصغير من داخل ملابسي، فتحته، ووجدت علبَتي السجائر والتونة وقطعة الخبز. قسّمتُ الخبز بيننا وفتحتُ علبة التونة وجعلنا نغمس فيها. للحظات خمّنت أنني الوحيد إضافةً إلى الشخص الذي قام بالمفاوضة، ولكن حين التفتُّ اكتشفت أن الأغلبية فتحت علب التونة المتشابهة، وحتى السجائر من النوعية نفسها. تبادل الجميع الابتسامات، مفكّرين في خديعة الحارس العربي.

ربما نمت ساعةً أو أقل، أيقظني بابلو بعدها، وبدأ صراخ الحارس يقترب منا. فتحت عينَي ووقفت مسرعاً، ثم التفتُّ يميناً وشمالاً ولم يكن هناك أي أثر لأي قطار. لحظات واهتزت الأرض تحت رجلي وسمعت صافرته من بعيد، مسرعاً نحونا حتى بلغنا. كنا قد عدنا إلى صفوفنا، يحيط بنا الحراس من كل جانب. سحبنا أمتعتنا وسرنا إلى أبواب المركبات، هل كانت بها حيوانات قبل أيام؟ اعتقدت ذلك، إذ إن الليالي الثلاث التي قضيتها في حظيرة المركب جعلتني لا أفكّر إلا في الرائحة العفنة، غير أنّي لم أستنشقها، وحلّ مكانها غبارٌ دقيق، ما إن تتحرك حتى يتصاعد، أما إذا استنشقته فتنتابك كحّة طويلة وتشتعل الحرائق في عينيك. لم ندرِ ما كان ذلك الغبار، ولكننا لم ننتبه له إلا بعد أن سرنا مسافة، كنا حذرين في حركتنا داخل المركبة، حتى توقف القطار في المحطة الثانية. خرجنا مسرعين من داخلها، وجدنا جميع المعتقلين يقفون على الرصيف، يراقبون صعود الغبار. اقترح أحدهم أن نرمي الماء داخل المركبات ونتحمّل الوحل بقية الطريق، واضطررنا إلى مفاوضة الحراس العرب على الماء. حمل بعض الحراس دلاء وعادوا بها معبأة، وشرعنا نرشّ المركبات. قفز كورسكي أمامي وطلب مني الدلو، ودخل إلى هناك، وحين أطللت عليه برأسي انتابتني رغبة عارمة في الضحك، لا أدري لماذا تخيلته مثل أولئك الرقاة الكاثوليك الذين يرشّون الممسوسين بالماء المقدس ويتمتمون بالرقاء. كان يفعل مثلهم، يرمي الماء فوق الغبار ويتمتم بكلمات مبهمة، ثم رمى الدلو تجاهي، أمسكته بخفة وأعدته إلى الحراس. دقائق أخرى وصفر القطار، قفزنا إلى داخله وسار مغادراً

المحطة، يشقّ الجبال الكثيفة، تراءت لي مثل سييرا، ولكن أي جبال مثلها تستطيع أن تصنع الخيبات بنا!؟ يزداد القطار إيغالاً في الجنوب، مبتعداً عنها، لكنها هي تأبى أن تبتعد عنا، وفي كل يوم نكتشف أنها تتّسع، حتى تبلغ إفريقيا، وربما حتى لو نبلغ جلفا فإنها لن تتوقف، وتزداد شراهتها إلى بقية العالم من حولنا.

أطلّ من شقّ في الباب. بعد أن خلّفنا الجبال المشجّرة، ترتفع أخرى خالية من أي نبات، تراقب الطريق وسكة الحديد بقسوةٍ لا مثيل لها. كنت أفكّر في كل التضاريس، ولا أعلم إن كان ذلك حقيقياً أم أنني أتوهم فقط. عدت وسألت صديقي البولوني:

– أيّهما أشدّ قسوةً، أن تموت في حربٍ خاسرة أم أن تحيا في منفى بعيد؟

– لا تصلح مقارنةٌ مثل هذه يا مانويل، إنها تبدو مضحكة.

– قطار به عشرات المعتقلين يسير إلى جلفا دون أي مبرر، أترى هذا مضحكاً بالنسبة إليك!؟

– لا أدري، ولكن ما أعرفه أن بعض الفجائع تصنع الفكاهة في عالم ينحدر إلى الجنون.

بعد ساعات بدأت ريح دقيقة وباردة تتسلل من الشقوق. انضممنا إلى بعضنا من أجل الدفء، وجعل كلٌّ منا يسحب من حقيبته معطفاً، وكلما تقدمنا نزداد تكوماً على أنفسنا. ومع الظلام اختفت الشقوق وبدأ القطار يخفض في سرعته إلى أن توقف، وسمعنا أصوات الحراس وهم ينادون علينا، ثم فُتحت أبواب المركبات، واندفعت ريح باردة جعلت من كورسكي يرتعد ويتمتم: "سيبيريا أم جلفا!؟"،

وكرّر الجملة عدة مرات. أما بابلو ففتح حقيبته وأردف معطفاً آخر، وصار يسحب أي شيء من هناك ويتلفّع به، ومع ذلك لم أسمع أي تعليق منه.

حين اصطففنا أمام محطة جلفا، آخر نقطة تنتهي إليها سكة الحديد، وكأن خلفها الفراغ، سحبت بسرعة حقائبي وكوّمتُها إلى جانبي، لحظة أحاط بنا الحراس، ثم بدأنا في المسير، واضطررت أن أترك إحدى الحقائب. كان بابلو مثقلا بحقائبه مثلي، أما كورسكي فكان أبعد من أن أناديه، وسرنا بعد أن خلّف جزءٌ كبيرٌ من المعتقلين بعض حقائبهم. لا أدري في أي شيء فكروا لحظتها، أو حتى كيف كانت اختياراتهم، ولكني مع ذلك تركت أفضل كتبي في المحطة، واتّبعت الأوامر، وبدأت أخطو في الصف مع البقية. قطعنا فيها شارعاً طويلاً إلى أن بلغنا ربوةً صغيرة، بدأنا في تسلقها، وبعد أمتار ارتفع البناء، بدا مثل قلعةٍ قديمة. قال الحارس الذي كان يقف إلى جانبي: "إنها قلعة كافارولي"، ثم أضاف: "ستقضون بضعة أيام هنا قبل أن تذهبوا إلى المعتقل". وقفنا لثوانٍ نتأمل الأسوار العالية للقلعة، ثم فُتحت البوابة الخشبية، ودخلتُ للمرة الأولى والأخيرة قلعة كافارولي. ولجنا إلى ساحتها، في أربعة صفوف، وجدنا الضابط في انتظارنا، وقف ونادى على الأسماء، وأمر الحراس بعدها أن يرمونا في الغرفة (ب). ربما لم تكن تعني للضابط أي شيء، ولكنها عنت الكثير لنا، الغرفة (ب)، تختزل كل البرد الموجود في المدينة، تسحبه بطريقة عجيبة إليها وتنفثه إلى أجسامنا. تكوّمنا على أنفسنا، وأخرجنا كل اللباس الموجود في الحقائب، ولكن البرد ظل يلج إلينا.

لم تكن هناك لا ريح ولا أية عواصف في الخارج، ولكنه كان صقيعاً غير مرئي يتسرّب عبر الجدار الحجري، يخترق اللباس ويعشّش داخل الجلد، ينغرز مثل إبرٍ حادة، صرخ له الجميع، تورّمت أقدامهم بداية الليل واضطروا إلى لفّ القماش عليها، والبعض لم يستطع النوم وظلّ ينفخ فيها حتى الصباح. أخرجونا من الغِرفة (ب) وساروا بنا إلى أخرى أقل برودة، بعد أن سقونا قهوة ساخنة، وقسّموا علينا قطع الخبز، وأعادونا إلى الساحة حيث وقف مدير المعتقل يهيّئ خطبته المقتضبة، واصطففنا أمامه نرقب كلماته: "إنكم هنا بشكل مؤقت، وبعد أيام ستسيرون إلى مكانٍ آخر، وإلى غاية ذلك اليوم أريدكم أن تملأوا الأوراق التي توزَّع علَيكم".

عرفنا فيما بعد أن اسمه السيد كابوش، أتى مع بداية فتح المعتقل منذ أشهر قليلة، ولكن الشيء الذي لم نفهمه يومها هو إصرار الحرّاس على أن نملأ الأوراق، بالرغم من أن ملفاتنا عبرت معنا البوابة، حملها أحد الإداريين من فارني، خلفناه في الجزائر، ولكن الملفات رافقتنا إلى جلفا، بعد أن حملها جندي فرنسي. السيد كابوش طلب يومها أن نعيد كتابة ما هو موجود فيها، ولكننا بعد أيام من مقامنا في "عين الأسرار" اكتشفنا حكمة المدير، وأن الملفات التي حُملت ناقصة من وجهة نظره، وأن ما كتبناه في الأوراق يومها هو الذي حدد جزءاً من مصائر بعضنا، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بالورش التي فُتحت في المدينة، وبمعونتنا صار شريكاً لأصحابها.

لم نستطع النوم في أغلب الليالي التي قضيناها في كافارولي، البرد كان أقسى من أن يحتمل، صحيح أننا كنا نغفو أحياناً في النهار. في

يوم أتذكره جيداً، كان الوحيد الذي أطلت فيه الشمس من خلف الصور باهتة ومع ذلك أرسلت القليل من الدفء، جلسنا في الساحة نرقبها وكأنها حدثٌ جديد في حياتنا، ازداد دفؤها حتى أوشكنا على نزع معاطفنا، وللحظة انقلب كل شيء، وحجبتها غيوم كثيفة، ثم انكسر النهار، وعادت السموم من جديد تتسرب من كل مكان.

فكّرتُ في النار، وظلّت مثل حلم بعيد المنال، ليس بالنسبة لي فقط، بل رآها الجميع بالطريقة نفسها، وكنا مستعدين أن نفعل أي شيء مقابل أن يُسمح لنا بإشعالها. فكّرنا بعد أسبوع أن نكتب طلباً نرفعه إلى السيد مدير المعتقل، وفي الصباح حملته إلى الضابط غرافال، اعتقدنا أننا بالكتابة سنمارس حقوقنا كمعتقلين، ولكن غرافال ما إن رأى الورقة، وتأمّل ما كُتب فيها حتى قهقه وطلب مني العودة إلى المجموعة، وحين كنت أقف إلى جانبهم مزّق الورقة ورماها في وجوهنا ثم أردف: "أسبوع آخر وتسيرون إلى 'عين الأسرار'، لذا تفرقوا لا أريد أن أرى وجوهكم القبيحة أمامي". ومنذ ذلك اليوم صار الكل يكره الضابط، إلا أنهم يُجمعون على أنه لا يكذب إذا هدّد وتوعّد بسوطه، كان ينفّذ كل ما يقوله في المرة القادمة، وبالفعل لم يمرّ الأسبوع حتى قادنا الحراس إلى المعتقل.

بلد المنفى

١١

مثل المسيح نزلتُ من على الجلجلة، ورميت الصليب بعيداً بعد أن حطّمته، هل فكرت في الالتفات لحظة تجاوزت البوابة؟ لا أعتقد أنني جرؤت على ذلك، ولكن حين اعتدلت الأرض التفتُّ، شعورٌ غريب، ورغبة صرخت داخلي أن أجري بعيداً، حتى أسوار مدينة جلفا، لن يلحق بي أحد، ولن يطاردني أحد ما دمت أملك التصريح في جيبي، تحسسته بيدي، وسحبت الوثيقة وقرأت: "يُسمح للسيد مانويل أن يتجول في المدينة على مسؤولية مدير المعتقل، ويعامل مثل أي مواطن في المدينة"، وفي الأسفل ختم السيد كابوش وإمضاؤه. أعدت الورقة إلى جيبي وأنا أعبر الجسر الصغير المنصوب على الوادي العفن، تجاوزته مسرعاً، لم أستغرب أنني الوحيد الذي عبرته لحظتها، لأن المكان كان حكراً على العسكريين فقط، فليس من المعقول أن أرى أحداً من العرب أو اليهود هناك. سرت حتى بلغت باب الجزائر، مدخل المدينة من الشمال، وقبل أن أسلّم التصريح للحارس التفتُّ إلى الربوة الصغيرة التي ارتفعت فوقها قلعة كافارولي، وعاد رجع الأيام الأولى يتكوّم في الذاكرة،

طردته بسرعة بعد أن استلمت التصريح، ومررت إلى داخل السور، لا كمعتقل. وبدا عالمها الصغير مختلفاً، ليس لأنها بالفعل تغيرت، ولكن لأنني أنا الذي أراها كسائح لا كمن يحمل الأغلال في يده، غير مضطر أن يسمع صراخ الحارس فوق رأسه، مرعوباً من سوطه الحاد، ودخلت حاجّاً إلى المدينة، بعد أن وهبني السيد كابوش هذه العطلة التي أثبتُّ أنني أستحقها، وبالتأكيد للطبيب بيير يد في القصة، وأعتقد أن صديقي البولوني أيضاً شاركني في حمل هذا الجميل له، وهو الذي ساعدني على تجاوز الأيام التي تلت فرار بابلو.

الأيام التي تلت فرار بابلو كانت غريبة وغير متوقعة، لم أستطع أن أتكهن بأي شيء من ردة فعل الضابط غرافال، وحتى مدير المعتقل، ولعل الذي نمّى توجّسي تجاه الضابط أنه في اليوم الذي تلا الفرار لم يقم بالمناداة على الأسماء، ونحن الذين ألفنا صرامة الإجراءات لسنة كاملة، ثم تتوقف فجأةً ودون مبرر، وبعدها بيومين عادت المناداة، ولكن حُذف اسم بابلو. كنت أحمل نصيحة بيير مثل تميمة، ولم أجرؤ أن أبوح لأي أحد، سواء من الحراس أو المعتقلين الآخرين، ما عدا المقربين، إذ لم يكن يخفى عليهم ما حدث، ولكني حوّرتُ القصة وقلت إنه في المستشفى العسكري. أما كورسكي والذين يقاسمونني الخيمة فقد علموا بالأمر منذ اليوم الأول. وحين مرّ أسبوع وجدت نفسي أدخل إلى مكتب الضابط، بعد أن أخذني إليه الحارس الفرنسي، كان يجلس خلف مكتبه يدخن وقد وضع ترانزستور قربه، وكان يصدر أصواتاً مزعجة. نظر إلي وهو يحاول ضبط الإشارة، ثم شتمه وأغلقه، وعاد إلي يسألني:

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟

– الحارس هو من صحبني.

– أه أنت صديق الإسباني الذي فرّ منذ أيام.

– إنه يقاسمني الخيمة فقط.

– لا يهم. أتعرف إلى أين أراد الذهاب؟ أله أصدقاء في المدينة؟

– لا أدري.

– سواء كان صديقك أم لا، ولكنه مع ذلك كان شجاعاً ولم يسمح أن نمسكه حياً.

ارتخت رجلاي لحظتها ولم أنتبه إلاّ وأنا أخاطبه بصوتٍ مخنوق:

– أهذا صحيح؟ أما تقوله صحيح؟

– هل يهمك أمره؟

– نعم سيدي.

– القصة بما فيها أننا طاردناه أعلى الجبال الشرقية، كان يركض بسرعة ولم ندركه، وفي لحظة ما أصابه أحد الحراس، وأوشكنا على الإمساك به، لكنه زحف ورمى بنفسه من قمة الجبل إلى جرفٍ عميق.

قال الضابط ذلك منهياً المقابلة، ثم نادى على الحارس طالباً إليه أن يعيدني. كانت المسافة بين مكتبه والخيمة قصيرة ولكنها امتدت، لم أستوعب كيف بلغتها، وتمددت على فراشي أبكي مآل بابلو، وأتخيل كيف صنع نهايته، وهو يركض وهم خلفه، مثلما كان يفعل على الجبهة، وربما أيضاً صرخ في سقوطه منادياً على سيّيرا، وكأنه يتحداها من جبال جلفا. دائماً يضطرني إلى أن أقرّ أنه أشجعنا، ذلك الفلاح الذي هزم ربوة الريح، وقفز من فوق الأسلاك الشائكة. كنت

صامتاً في مرثيتي الأخيرة، ولحسن الحظ جلست وحيداً في الخيمة، لم أرد أن يعرفوا ما حدث، وشعرت أنهم سيرونه هزيمةً له ولي، لأنهم اعتقدوا دائماً أننا شخصٌ واحد.

في اليوم الثاني، بعد المقابلة، جلست صامتاً في العيادة أفكر في ما حدث لبابلو، وداهمتني الأصوات المزعجة للترانزستور، وحتى الشتائم التي تلتها. وقبل أن تتواصل كلمات الضابط سمعت صوتاً مختلفا يبادرني الكلام ويتساءل عن الصمت المفاجئ الذي اختبأتُ خلفه، وأنا الذي تعودت على الكلام. رفعتُ رأسي حيث وقف بيير أكثر انشراحاً مني، مستعداً أن يقضي النهار كله في الحديث، ولكني لم أستطع أن أردّد حتى الكلمات البسيطة التي اعتدنا أن نتداولها. غادر إلى غرفته لدقائق وعاد يحمل معه زجاجة نبيذ وكأسين، وجلسنا متقابلين عند المكتب، سحب سيجارة وأشعلها ثم سلّمها لي، ومدّني بكأس وطلب مني أن أشرب. وبعد أن عببت الكأس الأولى ونفثت الدخان، استطعت أن أتكلّم ولم يكن سوى بابلو. خمّن بيير ذلك، ولكن الذي لم يفهمه لماذا يضطر الضابط أن يستدعيني إلى مكتبه من أجل كلام ملفّق وقصة لم تحدث أبداً، ثم أعاد كلماته ثانية وهو ينظر إلي: "إن ذلك لم يحدث يا مانويل، إنها مجرد أكاذيب. أعرف الجميع هنا، وغرافال شخص سادي، لا يحتمل أن يرى أحداً منكم يضحك. إنكم هنا لتبكوا، هذا هو منطقه بالنسبة لمعتقلات التأديب". صرختُ لحظتها ووقفت دون وعي، وهممت بالمغادرة لولا يده التي أمسكتني:

– احذر أن تخبر أحداً عن أي شيء حدث في مكتب الضابط، وحتى هنا في العيادة.

غادرتُ العيادة سعيداً، أنا الذي قاربت الجنون بسبب قصة الضابط، وسرت مباشرةً إلى الخيمة. لم أفكّر في أي لذة عدا النوم، أردت أن أرى أحلاماً قديمة انتابتني قبل الحرب، ولم أرَ إلا سييرا تتجدّد خلف "عين الأسرار".

الأسبوع الثاني الذي تلا الحادثة اختلف بطريقة عجيبة، وكانت العيادة هي المكان الوحيد الذي أدين له بكل شيء، والطبيب هو الذي غيّر مسار الأيام التي تلت الحادثة. وعندما فرغنا من العمل مساءً جلستُ إلى الآلة الراقنة أواصل الكتابة، وبعد ساعة صففتُ الأوراق ووضعتها على المكتب، حتى جلس بيير يقابلني مبتسماً، وكأنه يحمل أخباراً طيبة. فكرت في البداية أن الأمر يخصّ بابلو، ولكني تراجعت إذ إن أخباره بالنسبة للمعتقل لم تعنِ إلا شهادة على موته. سحب الأوراق من على المكتب وبدأ في قراءتها، ثم سألني عن بعض التفاصيل، وبعد أن وضع الأوراق في محفظته قال:

– قلت لي إنك كنت مدرِّساً؟

– أجل قبل سنوات؟

– ما رأيك أن تعود إلى وظيفة التدريس؟

– أتمنى ذلك ولكن كيف؟

– السيد كابوش يبحث عن مدرّسين لابنه، ما رأيك في الفكرة؟

– جيدة وأنا موافق.

كنت مشتاقاً إلى التدريس، وفكرت أنني ربما أستطيع أن أحقق انتصارات أخرى مثل الآلة الراقنة والسجائر، التي حصلت عليها. ففي المعتقل كنا نضطر دائماً إلى انتهاز أي فرصة تتجلّى، وأحياناً

نحن الذين نخلقها. عدت إلى الطبيب:

- عن ماذا يبحث المدير بالضبط؟

- يريد مدرِّساً للإسبانية والألمانية والحساب، وأعتقد أنه ذكر الموسيقى أيضاً.

ابتسمت من الاختيار الأخير. لم أعتقد أن أحداً من المعتقلين يمكن أن تجتمع فيه كل المواصفات. كنت مستعداً أن أدرِّس الإسبانية والحساب، وفي الألمانية فكّرت في صديقي البولوني الذي يتقنها، وتخيّلته بلباسه الديني وهو يعطي الدروس لابن المدير، ثم يملي عليه آية باليديشية ويطلب إليه ترجمتها. والتفتّ إلى بيير:

- ما رأيك بمدرِّس في اليديشية؟

- ماذا؟

- عفواً الألمانية، أقصد صديقي البولوني، لقد كان يعمل مترجماً.

- غداً صباحاً أجدكما متسمّرين عند باب العيادة.

قال جملته الأخيرة وخرج حاملاً المحفظة. تلوته مباشرةً إلى صديقي البولوني الذي كان يقف بين الخيام، وحين رآني مقبلاً سار باتجاه الشرق، حيث اختفى بابلو. ترددت في اللحاق به، ثم تشجّعت وسرت حتى بلغته. تأمل المقبرة وقال:

- أتعرف ماذا يطلق المسلمون على تلك المقبرة؟

- لا.

- إنهم يسمونها المجحودة.

- اسم غريب بالنسبة لمقبرة.

- نعم، فقد قال لي أحد الحراس العرب إن لتسميتها قصةً ولكنه

لا يعرفها. لم يخبرني الصدق، كان يعلم كل شيء ولكن أمراً ما منعه من الكلام.

- سيتكشف كل شيء ذات يوم.

- لا أعتقد، فالعرب مولعون بدفن الأسرار مثلنا نحن اليهود.

- دعنا من هذه القصص. ما رأيك في أن تعمل مدرّساً؟

- أين، في الكوليج دي فرانس أم أين؟

- أنا لا أمزح. عرض علي الطبيب أن أعمل مدرساً لابن كابوش، وأنت أيضاً يمكن أن تدرّسه الألمانية.

- ومتى نبدأ؟

- غداً نقابل الطبيب، وهو الذي يحدّد لنا الموعد مع المدير.

لا يتعصّب كورسكي لرأيه حين يخطئ، ولكنه يعرف كيف يفكّر بعقلانية، يحسب الأمور في عقله وبسرعة يعطيك النتيجة، وذلك المساء قدّر أننا سنكون أحسن حالاً ونحن مدرسان، وأن ما نفعله سيؤثر على حياتنا كمعتقلين. ولم تمضِ الأمسية حتى كنا نخطط لكيفية المقابلة، وأي الأشياء نستطيع أن نطلبها، أو بالأحرى أن نأمل فيها، مقابل عملنا كمدرّسين. وفي الصباح وقفنا عند باب العيادة، مستعدين لكل شيء. ظهر الطبيب وإلى جانبه أحد الحراس، رافقناه إلى مكتبه داخل العيادة، وبقي الحارس بانتظارنا خارجاً. وضّح لنا بيير الطريقة الحذرة التي يجب أن نتصرف بها مع المدير، كما لمّح لنا بأن نحاول أن نربح ما نستطيع من خلال هذه الفرصة. أما بالنسبة للعمل في العيادة فسيسير بطريقة عادية، لأن التدريس سيمتد من المساء إلى الليل، ثلاثة أيام في الأسبوع، ومساء هذا اليوم ستكون

المقابلة. قال ذلك وعاد بوجهه إلى مرافقي يسأله:

- ماذا كنت تعمل قبل تأتي إلى هنا؟

- كنت أترجم مقالات عن الألمانية لجريدة فيكتوريا.

- فيكتوريا... كنت أتابع هذه الجريدة. بأي اسم كنت تمضي المقالات؟

- باسم ك - ب.

- غير معقول، أهو أنت! كنت أتتبّع ما تترجمه دوماً، ولكنك تميل إلى الحكايات الدينية والأسطورية وعلاقاتها بالشعر والأدب.

وقف لحظتها بيير وطلب إليه الوقوف، ومدّ يده يتعرف عليه من جديد، وكأنهم في أحد نوادي باريس. ابتسمت لهذا التصرف، شعرت أنني بدأت أنحدر إلى الغابة، مستغرباً التصرفات الحضارية التي يمارسها البشر فيما بينهم. بعد التعارف عاد صديقي إلى المطبخ وبقيت أنا في العيادة أنتظر المرضى الذين قرروا أن يعطوني إجازة ذلك اليوم.

هل الحارس هو الذي أخبر الضابط عن قصة التدريس؟ أم أن السيد كابوش هو الذي أعطاه الأوامر؟ لم أتبيّن ذلك جيداً، ولكني التقيته مساء. كان حانقاً وهو يطالعنا، شعرت أنه يريد أن يفتك بنا، اختلج السوط بيده وأوشك أن يرفعه في وجه أحد الحراس العرب بعد أن كال له السباب طالباً إليه أن يرافقنا، ثم تراجع في آخر لحظة رأى فيها الصبائحي أحمد يدخل من البوابة على فرسه، أومأ له من مكانه وطلب إليه أن يرافقنا إلى فيلا مدير المعتقل في حيّ بال أومبراج، وإن حاول أحدنا الفرار يطلق عليه النار. قال الجملة بغضب، مفتعلاً حركات بيده، وكأنه بالفعل أرادنا أن نجرّب فيها الفرار. مرّت دقائق

دخّن فيها الصبائحي سيجارة لفّ، وسار بنا خارج البوابة، اعتلى فرسه بينما كنا نسير إلى جانبه، قطعنا نصف الطريق صامتين، ومع بلوغنا الجسر الصغير توجّه إليه كورسكي بالكلام:

– ما قصة المقبرة هناك؟

وعلى وقع كلمة "مقبرة" التفت الصبائحي تجاهنا:

– إنها مقبرة اليهود.

– لا أقصد التي على يسارك بل التي على يمينك.

– المجحودة؟!

– أجل.

– وماذا تريد أن تعرف عنها، إنها مجرد مقبرة.

– لماذا سميت بذلك الاسم؟

– لا أعرف؟

– يقال إن هناك قصة خلف التسمية، أصحيح هذا؟

– سمعت أيضاً عنها.

– وماذا قيل؟

– إنها مجرد إشاعات عن اختفاء أول قبر بها.

– وقبْر من كان؟

– إنك تبحث عن أشياء نحن لا نهتم لها.

– ربما هناك من يهتم.

– أنا لا أعرف أي شيء عن قصة المقبرة.

وهكذا قطع الصبائحي الطريق على كورسكي، الذي لم يرد أن يصمت بقية الطريق، وبعد كل خطوة يبحث عن طريقة أخرى

ليعيد بها قصة المقبرة، حتى نظر إليّ الصبائحي بغضب وطلب مني إسكاته. تدخلت وغمزت صديقي ثم همست له بأن يؤجل القصة إلى يوم آخر، وكنا حينها نقف عند باب فيلا مدير المعتقل.

كان السيد كابوش يجلس في الحديقة، وإلى جانبه زوجته وابنه الذي بدا في العاشرة، وبقينا واقفين في انتظار أوامره، ثم أومأ لنا بالدخول إلى غرفة جانبية، كانت نفسها التي قدّمنا فيها الدروس، وبعد لحظات التحق بنا، وطلب إلى الصبائحي الانتظار بالخارج. جلسنا إلى الطاولة متقابلين، وكأننا في اجتماع، وقبل أن نبدأ الحوار طُرق الباب ودخلت زوجته حاملةً زجاجة النبيذ، وجلست إلى جانب زوجها بعد أن عرّفها بأسمائنا. بدا كل شيء مختلفاً ذلك اليوم، وكأننا لسنا معتقلين عنده، كان أكثر ليونةً، وكأنه بالفعل يريد أن يبرم صفقةً جيدة. صبّت لنا زوجته قليلاً من النبيذ، وما إن أخذت الرشفة الأولى حتى زاد يقيني بأننا خُدعنا بالخمر التي أتى بها صديقي البولوني ليلة الاحتفال، واكتشفت نبيذاً حقيقياً بعد أكثر من سنة في المعتقل. كانت العديد من الخواطر تدور في رأسي، بددتها تلك الرشفات المتتالية. ابتسمت السيدة حين لاحظت تجلّي متعتي بالنبيذ، وصبّت لي كاساً أخرى، ثم تكلم المدير عن العمل، بعد أن أخذ وجهه تفاصيل جادة، أراد أن يعرف اقتراحاتنا في ما يخصّ تدريس ابنه، وكيف سنقوم بالعمل. شرحت له وجهة نظري، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر باللغة الإسبانية والكتب التي يجب أن نستعين بها، وطلبت بعض العناوين. أما بالنسبة للحساب فلم تكن هناك مشكلة، فالكتب المدرسية كفيلة بكل شيء. ونظر إلى صديقي متسائلاً إن كان يريد هو الآخر كتباً معينة يستطيع أن يوفّرها له، ولكنه

لم يطلب أي شيء، وأشار أنه يحمل معه كل ما يحتاجه، وتدارك نفسه وطلب كتاب نوتات لبيتهوفن، وإلى ذلك اليوم لم أكن أعرف أنه يحسن العزف على البيانو. نظر إليه السيد كابوش نظرة شخصٍ مرتاب:

- لم يقل لي الطبيب أنك تحسن الموسيقى؟!
- ولكنه لم يسألني عن ذلك.
- وماذا تحسن العزف على البيانو؟
- بيتهوفن وشوبان.

وفجأةً قام المدير وفتح باباً يؤدي إلى غرفة ثانية، بها مكتبة وبيانو لصيق بالجدار، وبينما تفحّص رفيقي البيانو وأعدّ مفاتيحه، قرأتُ أنا العناوين الموجودة على الرفوف، وتأكدت أن السيد المدير لم يقرأ الكثير منها، فأغلب الكتب الجيدة لم تُفتح، وقد غزاها الغبار. قلبت بعضها واكتشفت أن هناك كتباً أيضاً باللاتينية، بعض النسخ من الكتاب المقدس وأخرى لكلاسيكيات الأدب الإسباني والفرنسي، وحتى الألماني، وأخرى بالعربية. سحبت كتاباً بالإسبانية وفتحته، في الصفحة الأولى طالعني إهداء كُتب لشخصٍ منذ عشرين سنة، بدا الاسم إسبانياً أو برتغالياً. أعدت الكتاب وجعلتُ في كل لحظة أسحب كتاباً يعجبني، ويطالعني الاسم نفسه، ولكن بتواريخ مختلفة وحتى الأماكن اختلفت، وحصلت على جولة أوروبية عبر قراءة الإهداءات. انتابتني رغبة في أن أسأل المدير عن المكتبة، وأجّلت السؤال حين تذكرت تحذيرات الطبيب، ثم عدت بوجهي إلى صديقي فوجدته قد جلس إلى البيانو منتظراً عودة المدير، وفي لحظات وصل يرافقه ابنه، جلسا قريبين من البيانو وأعطى له الاشارة، انطلق اللحن عبر الغرفة، هُيئ لي أنني

سمعت المقطوعة قبل الآن، أين؟ إنها قاعة الأوبرا في برشلونة، كنت إلى جانب باتريسيا، نشاهد أوبرا فيديليو. كم أحبت زوجتي ليونورا، وكم أرادت أن تكونها. أما أنا فكنت بالفعل ذلك الزوج المسجون.

سحب صديقي أصابعه من على البيانو، ثم وقف وانحنى تحت تصفيقات المدير وابنه، بدَوا سعيدين بالمعزوفة، ولكنهما لم ينتبها إلى السيدة التي كانت تقف عند الباب وقد امتلأت عيناها بالدموع، ثم اقتربت من صديقي وشكرته على المعزوفة، واكتشفنا يومها شخصاً آخر يعرف "أوفيد"، ثم شرعت السيدة تحدثنا عن حضورها العرض الأول لهذه الأوبرا منذ سنوات في برلين.

بالتأكيد لم يغادرني فضولي في معرفة قصة المكتبة، ولم يكن ليخفى عدم اهتمام المدير بالقراءة، مع حرصه على تعليم ابنه، وبعد أن تشجّعت وسألته فاجأني بأنه اشتراها مع البيت من شاب إسباني قال إنه ورثها عن والده، وما إن أمسك المال في يده حتى غادر جلفا، ولم يُظهر أي اهتمام بالمكتبة والبيانو وهو يطلب مبلغاً في مقابلها، ودفع له المدير عندما خمّن أنهما سيكونان مفيدين لولده جان.

الخواء المادي والفكري الذي عاشه السيد كابوش في الجيش جعله يعيد حساباته آلاف المرات في جلفا، واكتشف بعد فتح المعتقل أن الإدارة في الجزائر لا يعنيها أمر المعتقلين الذين أرسلتهم من أجل تكسير رؤوسهم، واستطاع أن يجد أصدقاء له بسهولة من الفرنسيين المدنيين، وشاركهم في أعمالهم. أما عن ذاك الخواء الفكري فقد حاول أن يستدركه في ابنه، وأراد له أن يعيش حياةً غير التي عاشها، وربما فكّر أنه سيرسله للدراسة في السوربون بعد

سنوات، لم يصرح بذلك ولكنه تجلّى في حرصه على الطريقة التي ندرّس بها، وكأنه يريد أن يقول: يجب أن يأخذ ابني كل المعارف، اريده أن يجيب عن كل سؤال.

على مائدة العشاء تصرفت الزوجة بحميمية معنا، وكأننا أصدقاء قدامى للعائلة، أما الزوج فبدا أكثر اقتضاباً في الحوار، مما جعلني وصديقي محافظين على نصيحة الطبيب، ولم نرد أن نحرم أنفسنا من المتعة أمام مائدة المدير التي افتقدناها منذ سنوات، بالنسبة لي ربما تمتد إلى هجرة العائلة إلى المكسيك، التي ومنذ رحيلها لم أعرف عنها أي شيء. وصلتني رسالتان حين كنت في برشلونة، وبعد انتقالي إلى الجبهة لم أستلم أي شيء. كنت أعرف أنهم يحيون جيداً هناك بعيداً عن إسبانيا، أما زوجتي فمثلي تعيش في خوفٍ مستمر، وتضطر أحياناً إلى ترك المدينة التي تدخلها في نفس اليوم.

وأنا أرى معاملة المدير لابنه وزوجته أتذكّر حواراتنا القديمة، ثم أطردها وأنا أحمل الكأس، ولربع ساعة تأملته حتى انتبه إليّ جان وسألني عمّا أصابني، وسمعت صوته لأول مرة ليلتها. بعد العشاء خرجنا إلى الحديقة، وجلسنا لدقائق التقى فيها وجهي ووجه صديقي، وكأنه يذكّرني بالمساء الذي اتفقنا فيه على الأشياء التي نودّ أن نطلبها. صمتنا لدقائق أخرى لاحظها المدير، واشتمّ رائحة المكيدة، نظر إلينا متفحصاً ثم قال:

– أشعر أن هناك ما تريدان قوله؟

ذكاء المدير جعله يختصر علينا المسافة، وبدون أن نمهّد لما نريد أو أن ندخل في مقدمات، تكلّمت وعرضت طلبي، وهو السماح

لي بالنزول كل يوم أحد إلى المدينة وشراء ما أريد دون أن أُفتَّش عند البوابة، ومثلي طلب أيضاً صديقي ولكنه اختار يوم السبت. لم يضجّ يومها المدير ولم يغضب، وقال:

- الآن يجب عليكما الرحيل، وغداً نفكّر في الأمر.

خرجنا من عنده فارغي الأيدي، وعند الباب كان ينتظرنا الصبائحي، وقد فاحت منه رائحة خمر رديئة، لكنه لم يكن ثملاً، ظل صامتاً طوال الطريق إلى أن وصلنا، ودّعنا عند البوابة وعاد إلى بيته.

في نهاية الأسبوع طلبنا المدير إلى مكتبه، وبعد أن دخلنا سلّم كلاً منا ورقتين، الأولى تصريح بالخروج في الأيام الثلاثة التي نعمل بها، والأخرى باليوم الذي طلبناه كإجازة. كنا واثقين بأننا سنحصل على طلبنا، ولكنا حين قرأنا الأوراق لم نصدّق ما كُتب فيها، كانت مثل حصانة من كل شيء، لن يجرؤ غرافال أن ينادينا ثانيةً ويأمر أحد الحراس العرب بتفتيشنا. وكذلك أستطيع أن أنزل إلى المدينة بحرية. في ذلك اليوم أيضاً عُيّن الصبائحي أحمد ليكون المسؤول عن أخذنا من المعتقل وإعادتنا إليه.

يومها عدت إلى الخيمة مبكراً، أردت الاحتفال مع الجميع، سحبت بعض النوى من كيسي، حمّصتها وسحقتها ثم أعددت إبريق قهوة، وجلست مع الإسبان الثلاثة والعجوز، نرتشف منها بعد أن فرّقتُ بينهم السجائر. كانوا سعيدين وهم يستلمونها، واختفت النظرات التي قرأتها في وجوههم ذات يوم، بدونا مثل أصدقاء حقيقين، ولا أدري لماذا شعرت أنني أمام اكتشاف أننا الوحيدون الذين نصنع الأعداء لأنفسنا، وفي استطاعتنا أن نربح الجميع كأصدقاء.

١٢

كان اليوم الذي نزلت فيه إلى المدينة مختلفاً، ليس لأني أحمل التصريح فقط، بل لأنه تلا أيضاً أحداثاً لم تكن في الحسبان، فقبل أيام فقط قيل إن هناك لجنة ألمانية قادمة. شاع الخبر بين المعتقلين، وعكست وجوهم الشاحبة خوفهم، وكلما سمعوا صوت سيارة اعتقدوا أنها هي. مرّ أسبوع ولم تأتِ اللجنة، وتأكد الجميع أنها مجرد إشاعة، ولكن في مساء ذلك اليوم ارتفعت أصوات الشاحنات، خرج الجميع من خيامهم، واجتمعوا في الساحة، اعتقدوا في البداية أنها اللجنة، ولكن ما إن وصلت حتى تأكدوا أنها لم تكن إلا التي تحمل الألواح واللبن من أجل بناء الأكواخ. ناديت الإسبان الثلاثة، وبدأنا في إنزال الألواح واللبن قرب الخيمة، وقررنا أننا لن نبتعد كثيراً.

ساعدت الشباب في حفْر الأساس وخلط التراب مع الإسمنت القليل الذي أعطي لنا، وقام أحد الإسبان الثلاثة بالبناء، وهكذا مرّ أسبوع وانتهينا من بناء غرفة واحدة تسع الجميع، لم تكن مثل التي في فارني، ولكنها على الأقل أحسن من الخيمة إذا ما هبّت العواصف على الربوة.

في الغرفة استطعت أن أرتّب أوراقي، وأعدّ الدروس لابن السيد كابوش، الذي بدا مثل والده يحسن ما يريده ويستوعب كل الدروس التي أعطيها له، وحتى زوجته لم تكن تبخل عليّ بكؤوس النبيذ، ومرةً أهدتني زجاجة احتفلت بها مع الأصدقاء في الكوخ.

لم أستطع النزول إلى المدينة الصغيرة إلا بعد ثلاثة أسابيع، عملت فيها في بناء الأكواخ، وانتظرت اللجنة الإنكليزية التي قالوا إنها ستأتي، ولو لم يكن كورسكي هو الذي حمل الخبر لما انتظرت، إذ كانت أغلب نبوآته صادقة إلا هذه. كنا واقفين عند باب العيادة عندما أخبرني ثانيةً أنهم ربما يأتون بعد ثلاثة أيام، ولم أتذكر كلماته إلا وأنا أقرأ لافتة "بوا دو جيلبار"، الشارع الرئيسي في جلفا. أعدت كلماته، واكتشفت أن هذا اليوم هو موعد وصولهم. فكّرت في العودة إلى المعتقل، وترددت لمّا رأيته جالساً تحت شجرة التوت، أمام مقهى لابوست، يدخّن النرجيلة. تقدمتُ أكثر ودققت النظر، بدا لي وجهه مألوفاً، وما إن قطعت الشارع حتى عرفته، الصبائحي كان يحتلّ المكان، ولكنه لم يتوقع أن يراني هناك، وقف مستغرباً:

- أهذا أنت! كيف سمحوا لك أن تخرج وحيداً؟!
- اسأل السيد كابوش.
- صديقك الآخر قال نفس الكلمات.
- تقصد كورسكي، هل رأيته؟
- أجل، إنه رجل متدين، أراد أن يعرف أين هي البيعة.
- وأوصلته إلى هناك؟
- أجل. أتريد أن أدلّك على الكنيسة؟

- لا شكراً.
- لماذا نزلت إذن إلى المدينة؟
- لا أعرف بالضبط.

فكّرت في عدة أشياء، وأردت القيام بأخرى قبل أن أنزل إلى المدينة، ومع عبوري البوابة تبخّر كل شيء، وغابت حتى البسيطة منها، كالحاجات التي أودعني إياها بعض المعتقلين. وقفت أتأمل عين الماء، حيث تجمّع بعضٌ من العرب في لباسهم التركي، يراقبون العبيد وهم يقودون الجياد إلى العين. قبل اليوم لم أكن أعلم أن العبودية مازالت، ولكنني اكتشفتها مثلما كانت في القرون الوسطى، يعملون بجدّ والسياط فوق ظهورهم. أشفقت لمنظرهم بالرغم من أنه لم يكن يختلف كثيراً عمّا كان في المعتقل: الآغاوات يجلدون العرب والعبيد، ونحن واليهود يجلدنا غرافال. المشاهد تتكرّر وتختلف المصالح باختلاف الأمكنة.

في الأيام الأولى بدت لي جلفا غامضةً بأبنيتها القليلة وسورها القديم، ثم دخلتها وزادت حيرتي أكثر من المشاهد التي كنت أراها أحياناً. يمرّ رجل من اليهود يسير إلى جانب العربي مثل إخوة، وللحظات أسمع جرس الكنيسة يرتفع، وأوشك أن أصطدم ببعض الأوروبيين الذين يسيرون إليها. أحاول نسيان كل المشاهد، ولكن صوت الرجل المسلم الذي يدعو الناس إلى الصلاة يوقظني من غيبتي ويجعلني أطرح آلاف الأسئلة عن هذه المدينة القرية التي لا يتجاوز سكانها العشرة آلاف، وكيف تتأقلم الديانات الثلاث فيها، بينما كانت أوروبا تحترق بنار المدافع، وهي التي لم تتسع للمسيحين

فقط. لطالما كنت بعيداً عن الدين، ولكنني في كل يوم أجزم أن الحرائق دائماً تنشب باسمه. حتى عندما كنا في إسبانيا، انحازت الكنيسة للقوي، وفجأةً أصبحنا في مواجهةِ الرب.

لم أعتقد يوماً أنني سأطرح مثل هذه الأسئلة في المعتقل، ولكني كنت أبحث عن السبب الذي جعل الحياة هنا تسير وفق هذه الطريقة، وهناك عالم آخر في المعتقل، ونحن الذين طالما ادّعينا الإنسانية، التي لم نعرفها في يوم ما، خمّنت أنه لو كان بابلو معي لما بقي يفلسف الأفكار مثلي، بل يقفز وينزع السوط من يد الآغا، هذا إن لم يجلده به.

في غيبتي وصلني صوته وهو يدعوني إلى الجلوس، أما حين جلست فقد قدّم لي النادل العربي فنجان القهوة، وفاجأتني رائحتها وأنا الذي افتقدتها منذ سنة. بسرعة قرّبت الفنجان إلى فمي، وبلذة سحبت الرشفة الأولى. طالع الصبائحي وجهي، وكأنه فهم الأسئلة التي كنت أطرحها، وقبل أن أتنبأ بما سيقوله بادرني بالحديث:

– هل تبحث عن مكان أو شخص ما؟

– ربما هي بعض الاسئلة.

– لا تسألني عن المقبرة فقط، قال ذلك ضاحكاً.

– ليس عن المقبرة، ولكني لم أعرف من يسكّن المدينة؟

– الجميع يسكنها، الأوروبيون هم من يتحكّم في كل شيء، وتساعدهم السلطة الفرنسية، أما الطبقة الأخرى فهي من العرب واليهود.

– بدوا متأقلمين كثيراً.

– لا. العرب هنا طيبون ومؤمنون بالقدر، إنهم يرون أن كل ما

يحدث هو من عند الله وهو الذي سيقوم برفعه.

- وأنت بمَ تؤمن؟

- أنا أيضاً أنتظر قضاء الله.

- ولماذا لا تحاولون أن تثوروا؟

- لديّ عشرة أفواه، من سيطعمهم إن رُميت في كافارولي؟

- ولكن عليكم التفكير في المستقبل؟

- كلامك يذكّرني بشخص هنا في جلفا!

- من هو؟

- إنه دحمان السلمي، لديه دكان في شارع بوا دو جلبار.

- ما رأيك أنني أريد أن أتعرف عليه.

قلت جملتي الأخيرة واقفاً، لم أرد أن أمهله حتى يفكّر في اختلاق أي شيء، ولكنه لم يفعل ذلك وبدا أيضاً راغباً في مرافقتي، وكأنه تكهّن أن الأسئلة التي أبت أن تخرج من صدري لن أجد لها جواباً سوى عند السلمي. سرنا عبر الشارع الطويل. هو ببرنسه الصوفي الأبيض، وأنا ببدلتي الزيتونية، مزيج غريب بالنسبة لي، ولكنه في جلفا حدثٌ يومي تعيشه المدينة، ومثلما قال لي كورسكي أول يوم له هنا، أنه تعرف على شاب عربي يوقد النار لليهود يوم السبت ويعينهم على قضاء حوائجهم، وليس الوحيد الذي يتعامل معهم، وكان صديقي يومها متعاطفاً مع المدينة وموغلاً في الحميمية معها، وكأنه أراد أن يكون هنا منذ زمن.

طلبت إلى الصبائحي أن يبطئ قليلاً، مدى خطواته أوسع من خطواتي، وبدا هذا البدوي معتاداً على قطع مسافات طويلة عبر

الصحاري. استجاب لرغبتي وأبطأ من سيره حتى أدركته ومشينا جنباً إلى جنب حتى بلغنا الدكان. تراءى لنا شيخ يرتدي طربوشاً، يجلس على مقعدٍ واطئ ويتكلّم إلى شاب يحمل مجموعةً من الرسائل، استغربت أنها أيضاً موجودة هنا، والتفت إلى الصبائحي أسأله:

– أتصل الرسائل إلى هنا دائماً، وفي مواقيتها؟

– نعم، النظام الموجود في أي مدينة أخرى ستجده هنا دون مبالغة.

لم أعرف بماذا شعرت حين سمعت جملته، ولكنه بالتأكيد عرفان بالجميل للطبيب، الذي جعلني أنزل إلى المدينة وأعيد اتّصالي بالحياة البشرية بعد أن أوشكت على نسيانها في "عين الأسرار". صمتُّ للحظات ثم أردفت:

– وهل تُفتَّش الرسائل؟

– أنت تفكّر في أشياء غريبة، لقد أفسدك المعتقل. لا يحدث أي شيء من هذا.

كنت مرتاباً في كل شيء حولي، السنة التي قضيتها في الأعلى جعلتني أكثر شكّاً. أرى الحراس يجوبون المكان يحاولون معرفة ما تفكّر فيه، خصوصاً بعد أن فرّ بابلو. صار الجميع حذرين، ونظرات الريبة لا تغادر الوجوه، ولولا الحصانة التي منحنا إياها السيد كابوش لكنت الآن وكورسكي معلّقَين على صليب غرافال، نُجلد من أجل خطايانا. بعض الساديين يحبون أن يمثلوا دور الرب، ولكنه ربٌّ عنيف يحب التعذيب لا الرحمة. كانت تشبه الجملة التي صرخ بها بابلو لما تأكّدت هزيمتنا، حدّق نحوي وقال: "كيف أؤمن ألّا يتخلى

عني الله، وقد تخلّى عن ابنه في الجلجلة؟ ألم يكن جبلا؟! ونحن اليوم نقطع الجبال أيضاً. لا أريد أن أؤمن به كي لا يتخلى عني". وهكذا ودّعنا الجلجلة، وربما كنا في نظر البعض جاحدين، ولكن بعد الحرب جحد الكثير مثلنا عندما انضمّ الرب إلى الجهة الأخرى.

حين اقتربنا من العجوز غادر الشاب تاركاً بعض الرسائل بين يديه، وعندما همّ بالوقوف سلّم عليه الصبائحي وكأنه يعانقه، بينما أرسلت يدي فقط، وبعد أن صافحني نظر إلي متفحصاً، قبل أن يدخل إلى الدكان وينادي علينا، وما إن مررت تحت قوس الباب حتى تفاجأت بالمكان، لم يكن يبيع أشياء محددة، كل ما تريده تجده عند السلمي: المواد الغذائية، والعقاقير، والأواني وأدوات أخرى لم أعرف بالضبط لأي شيء تصلح. قفزت نظراتي تجوب المكان، وللحظة انتشرت رائحة عتيقة في الدكان، وظهر السلمي من بابٍ موازٍ حاملاً إبريق الشاي، وطلب إلينا الجلوس، وظل للحظات أخرى يتفرّس وجهي قبل أن يسألني:

– أنت إسباني؟

– أجل وكيف عرفت ذلك؟

– قابلت الكثيرين في مراكش.

– مراكش!

– ما بها مراكش؟ إنها مدينة جميلة.

– ولكنّ مقاتليها أيضاً شرسون، مثل لعنات صُبّت علينا في الجبهة.

– إذن أنت من الجمهوريين، عرفت ذلك منذ أن رأيتك، ولكن

ما الذي تفعله هنا، كيف سمحوا لك بالخروج؟

- بعد خدمات للمدير.

- إنك محظوظ. لا يملك كل السجناء ما تملك. احرص على ألاّ تضيعه.

ابتسم وهو يصبّ الشاي، ونظر إلى الصبائحي:

- أنت اليوم صاحٍ أيها العجوز؟

- أنت تعرف أننيٍ لا أشرب إلا ليلاً.

- أعرف طبائع الصبائحية جيداً، من الحانة إلى باب الحديد، ويقولون إننا نعمل من أجل العيال.

- ولكنك تعرفني يا سلمي، ليس لي في النساء.

- أعلم. كنت أمزح معك.

للسلمي طريقة مختلفة في التعامل مع الناس، وكأنه يعرف جزءاً من ضمائرهم، أو ما يحملونه من أفكار، وبمجرد أن جلست إليه حتى غابت الكلفة التي يلجأ إليها بعض الناس في بداية التعارف، وربما يحتمون بها طويلاً، ولكنه حطّم كل الحواجز، وللحظات وجدت نفسي أصبّ له الشاي وأبادله المزاح وأقصّ عليه بعض القصص التي حدثت في سيّيرا، وعجبت من أن المرارة لم تكن في فمي وأنا أقصها، بالعكس كنت أبحث عن التي فيها فكاهة من أجل روايتها. وهو الآخر يقصّ بعض الطرائف عن حبّ اليهود للمال، وكيف بدأت معاملته معهم، وحتى مع بعض الآباء الأوائل الذين وصلوا إلى المدينة. كان يعرف كل شيء، الأحداث التي وقعت قبل خمسين عاماً، مع أن المدينة أُنشئت قبل ثمانين عاماً فقط، ولكنه كان يحفظ كل مغامرات

البدو فيها وحروبهم ضد السلطة الفرنسية، وبعض المؤامرات التي استهدفت الآغاوات، يحفظ تفاصيلها ثم يسردها وكأنها حدثت بالأمس. ومع ذلك ظلت بعض الأشياء غامضة بالنسبة لي، كإصراره الدائم على التحديق في الساحة التي تقابل الدكان، يرفع رأسه ويصبّ الشاي، يحدّق غير عابئ بامتلاء الكأس، ليعود بوجهه إلينا متأسفاً.

ماذا حدث في الساحة؟ لم أستطع أن أسأله، ولكنه حدثني نهاية ذلك اليوم عن بعض الأحداث الغريبة التي عرفتها المدينة، واكتشفت يومها نهمي الكبير لقصصها. قضيت جلّ اليوم في الدكان، وحين قررت العودة نظر إلي السلمي وقال كلماته التي لم أفهمها جيداً: "لا تعتقد أنكم الوحيدون الذين نُفيتم إلى هنا. لقد وصل قبلكم الأمير، ومن مكان أبعد من الذي أتيتم منه، وبينما أنتم تنعمون بالحياة حُمل من هنا ميتاً".

وعدت السلمي أن أزوره في الأحد القادم لأعرف بقية القصة، وغادرت دكانه وقد امتلأتُ بحياةٍ جديدة نفخ فيها بطريقة عجيبة عندما اقترح عليّ أن أكتب إلى زوجتي من هنا، وباسم مختلف. لا أدري كيف اكتشف هذه الفكرة، ولكني عندما سمعتهاا منه خُيّل لي وكأنه جرّب جميع الحيل التي في العالم، أو ربما حارب في جيش نابليون قبل سنوات بعيدة، ولكنه قال ببساطة: "إنهم يحوّرون الرسائل هناك في المعتقل. كيف تثق بما تقوله زوجتك وبما يصلها هي من أخبار؟". كان صادقاً بمقدار ما كنت ساذجاً، وقرأت ما كانت تكتبه زوجتي بطريقة مختلفة جداً، وقررت أنني في رسالتي القادمة سأكتب لها باسم مختلف، وبعنوان مختلف، وسيكون السلمي هو الذي يقاسمني الأيام

القادمة بعد أن خلف بابلو فراغاً لا يمكن لأحد أن يسدّه.

عبرت البوابة الشرقية للمدينة، وقطعت الجسر بخفة، وظهرت لي المدينة الصغيرة من بعيد مثل حلم جميل وددت لو لم ينتهِ. أما حين ارتفعت الربوة أمامي فقد شعرت بمرارة الأيام السابقة تعود، تسلّقتُها مجبراً، وبلغت بوابة المعتقل، وأحسست بحركة غريبة داخله. لم أرَ الفتية الإسبان يجوبون الخيام مثلما اعتادوا كل مساء، ولكني التقيت صديقي البولوني منتظراً الصبائحي ليرافقه إلى فيلا السيد كابوش، وما إن رآني حتى صرخ منادياً، ومع اقترابي حرّك رأسه بإيماءة غريبة، تكهنتها بسهولة، وكأنه أراد أن يعرف ما الذي حدث هناك أسفل الربوة، وحدست أنه يحمل قصصاً غريبة بقدر ما كنت أحمل، واتفقنا على أن نلتقي ليلاً من أجل أن نتسامر قليلاً، وقبل أن أودّعه وصل الصبائحي، وابتسمت وأنا أشتمّ منه الرائحة المعتادة. ردّ الابتسامة بمثلها، وطلب إلى صديقي أن يرافقه. شيّعتهما حتى البوابة، وعدت إلى الكوخ، حيث استلقى العجوز يردّد لحن أغنية ثورية، مثل التي غنّتها الفرقة الدولية في الميناء.

بعد ساعات وقف عند باب الكوخ، حاملاً زجاجة النبيذ في يده وبعض الحلوى التي صنعتها السيدة كابوش. كنت مشتاقاً إليها بطريقة غريبة، وما إن تجاوزت قدمه الباب وشممت الرائحة حتى تلقّفت يداي المغلّف الورقي، وجلس هو إلى جانبي ممتعضاً:

– إنها هدية السيدة على العزف.

– تستحق أكثر، قلت هذا وفمي معبّأ بالحلوى.

– أتعرف أن اللجنة جاءت اليوم، مع أنه عطلة؟

توقفت لحظتها عن الأكل ونظرت إليه:

- أهذا صحيح؟

- أجل، قالها بجدية.

شعرت بأن شيئاً قد حدث لحظة دخولي إلى المعتقل، كما لم ألتقِ الإسبان الثلاثة، ولم أبحث عن أحدٍ منهم، ربما لأني لم أتخيلِ أنهم قد رحلوا، عدا العجوز الذي كان منذ البداية أمامي، ولم أفكّر أن أسأله، حدّقتُ إليه معاتباً، وبدا غير عابئ بي، مما دفعني إلى الغضب:

- هل كنت هنا حين جاءت اللجنة الإنجليزية؟

- أجل كنت هنا.

- وماذا حدث؟

- لا أدري، كنت نائماً ولم يوقظني أحد.

لم أفهم إن كان ما يحدث داخل الكوخ مزاحاً أم جدّاً، وهُيّئ لي أن العجوز والبولوني يحاولان إغاظتي، ولكن الأصوات التي اقتربت جعلتني أقلّ حيرةً، ثم دخل الإسبان الثلاثة وتأكدت أن الأمر كله مجرد لعبة، والتفتُّ ضاحكاً إليه، وسحبت الزجاجة وحاولت ملء الكأس متناسياً ما حدث، ولكن الأصدقاء شرعوا في تعليقاتهم عن الضابط غرافال، وامتدت إلى المدير الذي احمرّ وجهه مثل الفجل وهو يكلّم ممثلي القنصل الإنجليزي. وحينها فقط عرفت أن اللجنة جاءت بالفعل إلى هنا، ولكنها لم تأخذ أيّاً من الإسبان. طلبوا إليهم الاصطفاف، ونادوا على بعض الفرنسيين والروس، بينما تلقى الإسبان الوعود، ثم غادروا في سيارتهم، وتلتهم الشاحنة التي حملت المعتقلين، وراقبهم المدير بغضب لم يستطع أن يخبّئه عن العيون التي

التصقت بالركب وهو ينحدر إلى الطريق الرئيسية.

خمّنتُ كيف تعلّقت العيون بالسيارة، وبممثلي القنصل الإنجليزي، وخمّنت كذلك أسئلتهم، لماذا الإنجليز فقط هم الذين يرسلون لجاناً إلى هنا، مع أنه لم يكن هناك معتقلون منهم؟ ولعلهم أيضاً صرخوا: أين اللجنة الإسبانية؟ وسيفكّرون قليلاً ثم يصمتون، لأنها لن تختلف عن الألمانية، سيُقادون كعبيد إلى معتقلٍ آخر، ويعملون ساعات إضافية، وبجهد مضاعف، دون زيادات مثل التي يهبها المدير.

ولكن اليأس وهو يتسرّب إلى القلوب ينخرها، يجعل الرجال يتعلقون بأشياء بسيطة، مثل الأطفال يُخدعون بسهولة ويُصدِّقون الوعود التي يتفوه بها أي شخص، حتى وإن كانت أقرب إلى الوهم، يتشبّثون بها، من أجل مواصلة الحياة. ومثلهم صدقتُ وعود اللجنة بأنها ستعود، وستأخذ الإسبان معها، وربما تخيّلتُ نفسي راكباً في الشاحنة، وأراقب المعتقل من خلفها، وربما قبل أن أرحل أطلب منهم السماح لي بأخذ صور فوتوغرافية مع بعض الأصدقاء، ولكنهم سيرفضون، وألحّ على المدير، ويقبل بعد أن يعيد حساباته، وأغادر حاملاً الصور إلى المستقبل.

بعد أن أخذت رشفةً صغيرة، تمددت على فراشي وراقبت سطح الكوخ، وعددت الألواح الخشبية، على ضوء المصباح الزيتي، واقترب صديقي البولوني مني، ثم همس لي:

- كيف قضيت رحلتك اليوم؟

- غريبة ومليئة بالتناقضات.

- لماذا؟

– ثلاثة أجناس وديانات تحتل مكاناً صغيراً، وهدوء مريب.
– أنا أيضاً استغربت عدد اليهود في المدينة.
– إنهم كثيرون، صعب أن تفرق بينهم وبين العرب.
– التقيت بعضهم في البيعة، وصادقت آخرين. وأنت هل تعرفت على أحد؟
– عجوز مسلم، وأعتقد أنه يكفي.

في البيعة تعرف كورسكي على الرابي يعقوب، لم يكن من جلفا، ولكنه أتى قبل سنوات بعيدة، قبل أربعين سنة أو أكثر، لم يعد يذكر مقدار السنوات التي قضاها في ديره الصغير، وربما كان الوحيد في المدينة الذي يتقن العبرية كتابةً وقراءة، وغالبية الآخرين يتكلمون العربية مثل سكان المدينة. ووظيفة الرابي، منذ اليوم الذي وصل فيه، هي إقامة الشعائر الدينية والصلوات كل يوم سبت، ويضطر أحياناً أن يقوم هو بالذبائح عن الناس، ولكنه في السنوات الأخيرة ولعجزه جعل أحد الشباب يساعده، وهو الذي استقبل صديقي البولوني حين قدّمه إليه الصبائحي، للحظات ثم أدخله إلى الرابي، وبدأت قصته مع البيعة، ثم صار صديقاً للرابي، ومقيماً لبعض الشعائر.

ما الذي جعل الرابي يعقوب يدخل المدينة؟ وما الذي جعله يختارها كمنفى؟ لم يكن أحد يعرف القصة غيره، وبعض العجائز الذين يخشون أن تمتد إليهم لعنة إفشاء الأسرار لا يتكلمون عنه إلا بالخير، وربما عرف الشاب الذي يساعده بعض الأسرار، ولكنه لم يكن ليفشيها، ولم يكن صديقي البولوني من النوعية التي تترك مجالاً لتغلغل القصص إلى ذاته، ويدعها دون أن تطلعه على كل التفاصيل،

ولكنه مع ذلك ظل حبيس هيبته للرابي، وبقدر ما كان اقترابه منه نعمة، ظلت الرهبة والتقديس حاجزاً يرتفع أمامه، واستمر تلميذاً عند بابه، إلى اليوم الذي غادرا فيه "عين الأسرار".

أما أنا فعكسه، إذ لم أزر أزر أي أب، كما لم أفكر بالرب بالطريقة التي يريدها الرهبان الكاثوليك، ونزلت إلى جلفا رغبةً في الإجابة عن بعض الأسئلة، وهواجس غامضة تنتابني أحياناً مثل الجنون. أريد أن أفتش في كل الأوراق، وأعرف أسرار الأمكنة، التي لم تكن في الحقيقة إلا لعنات تطاردني من مكان إلى آخر، ثم تعلقتُ بالعجوز الذي يكن يملك أصدقاء من أعدائي المراكشيين، وربما جلست عند بابه مثلما فعل صديقي البولوني، وادّعيت أنه مجرد صديق، عندما أردت أن أكون تلميذاً.

نظرت إليه وقد سهم:

– أزرت مكاناً آخر غير البيعة؟

– بعض البيوت فقط.

– أهناك نساء؟

– لا يخلو أي بيت منهنّ.

– ألم تعجبك أي واحدة؟

– لا أريد أن أتعلق بواحدة ثم أتركها.

الجوع إلى المرأة يجعلك تفعل أشياء غريبة، وبعد أن كنت تقضي كل ليلة مع زوجة أو صديقة، تبتعد عنهن مئات الكيلومترات، وتشتعل الرغبات في جسدك مثل حمى. تصطنع الصبر في الأيام الأولى، ثم ينفجر جسدك أنهاراً، وتبحث عن المرأة في مكان ليست فيه،

وتعود إلى عادات قد هجرتها منذ سنوات بعيدة، ثم تغمض عينيك وتفتحهما لتكتشف أنك في مدينة تعجّ بالناس، ماذا تفعل حينها؟

بالتأكيد تتذكّر رغبات جسدك المحمومة... ولكني لم أتذكّر أي شيء سوى كوابيس استطعت أن أتجاوزها، وصارت المدينة تعني أسئلةً أخرى موغلة في المنفى. واليوم زاد يقيني أن صديقي اليهودي يحمل هو الآخر الهاجس مثلي، ولكنه أكثر موهبةً مني في الكشف عن الأسرار، يتعلق بها مثل ساحرٍ يبحث عن تعويذةٍ تجعله يختفي، أو يحلّق مثل طيرٍ في السماء. ربما كان هكذا صديقي، أو أنني أبالغ في الأمر فقط، ولكني لم أستطع تجاوزه وهو يتكلّم عن الرابي يعقوب، بكل اللغة التي تعلمها من الكتاب المقدس، بتراكيبه التي أحبها، خصوصاً في نشيد الإنشاد، وبالأسلوب نفسه يصفه، ونحن جالسان في الكوخ، والمصباح الخافت يلعب بالأخيلة: "صامتٌ مثل جبل، ولكنه إذا تكلّم يقول جملاً من الصعب أن يؤتى مثلها، وكأنه يتلو الصلوات، والحقيقة أن كلامه لم يكن يختلف عن صلواته، يجرّ سنواته التي تجاوزت الثمانين وكأنها ألف سنة من الحكمة، متوسط القامة لا تسمع لمشيته صوتاً وهو يغادر من غرفة إلى أخرى، وأحب شيء إليه التأمل، يجلس في الحديقة، ويتأمل شجرة الصفصاف الوحيدة هناك". يصمت صديقي البولوني عن السرد ثم ينظر إلي ويسألني:

– ما الذي فعله شخص مثل هذا حتى يُنفى؟

– كان الأحرى أن تسأل نفسك لماذا أنت هنا؟

– ألا ترى أننا نسينا أن نسأل أنفسنا؟

– ربما لا يعرف لماذا هو هنا؟

لم يكن أحد يؤمن بالأسباب التي نفي بسببها إلى جلفا، ولكنهم كانوا يعرفون على الأقل ما كُتب في الأوراق، وأراد صديقي أن يعرف ما كُتب في أوراق الرابي، غير اسمه والمكان الذي قدم منه. خمّنتُ أنه أتى من مستعمرة أخرى، وكانت أيضاً تخميناته مثلي، ولكن هوس المعرفة جعله يوغل في التفكير. وانشغلتُ بقصة الأمير الذي نفي أيضاً إلى جلفا قبل سنوات، ولم أعرف تفاصيل القصة من السلمي.

حاولت أن أفكر في موضوع آخر، ولكني أفقت بعد رحيل كورسكي، تأملت الظلام من حولي، ثم ارتفع صوت السلمي عن الأمير المنفي. قلت إنها مجرد أضغاث أحلام بسبب الأكل، ولكنه عاد ثانيةً وبحدّة، استمر جزءاً من الليل، ولم أستطع النوم إلا بعد جهد. أفقت في الصباح متعباً منه، وقبل أن أغادر مكاني نظر إلي العجوز متسائلاً:

– ما بك مانويل؟ كنت تتكلم طوال الليل. لم تدع أحداً ينام.

– إنها الكوابيس.

– عن الحرب؟

– لا. عن المنفى.

في العيادة لم يسألني الطبيب عن رحلتي، بقدر ما كان متلهفاً إلى استمراري في الكتابة. أشار إلى ذلك وناولني السيجارة، وللحظات لم أكد أفكّر فيها في أي شيء، ما عدا الكابوس الذي جعلني أتكلّم طوال الليل، ونسيت أن أسأل العجوز إن فهم شيئاً من كلامي، بالرغم من أنني كنت متأكداً من أنها لن تختلف عمّا أفكر فيه، المنفى الذي نعيشه كل يوم بعيداً عن إسبانيا، والذي عاشه الرابي أربعين سنة،

وحتى الأمير الذي لم أعرف كم عاش منه، وماتت داخله جميع الرغبات في العودة حياً، ومات في يوم بارد مثل الذي نعيشه بشكل يومي، وننتظر أن نموت فيه، صباحه لا يختلف عن مسائه، مثل الأيام التي يتكلم عنها الكتاب المقدس، يوم لا نهاية له، لا يشبهه أي يوم، مسافة طويلة من العذاب، حفر عميقة من الجليد، تغور فيها حتى لا يُسمع لك صوت، ثم تعود مثلما كنت، وتعيد القصة من جديد.

في المساء جلست خلف الآلة الراقنة ووضعت الأوراق بها، وقبل أن أبدأ في طبْع الحروف فكّرت في النهاية التي ختمتُ بها في اليوم السابق، ووجدتني قد نسيت كل شيء، وأن ذاكرتي لم تحتفظ بأي سطر. هالني الأمر في البداية، واستوعبت أنها لم تكن سوى إشارة لانتقالٍ آخر، أو أن رغبات جديدة تتولد في البشر هي التي تتحكّم في تصرفاتهم، طوال السنوات التي يعيشونها، سواء في الأمكنة التي يحبونها أم بعيداً عنها. سحبت الأوراق البيضاء وتأملتها لثواني، شعرت أنها تريد أن تبوح لي عن الكوابيس التي زارتني بالأمس، وحين صمتت أعدتها إلى مكانها وجعلت أصابعي تنتقل بين الحروف، وترتفع الضربات، وأضجّ معها. تقفز أصابعي بخفة بين حرفٍ وآخر، ثم ارتخت فجأةً، أزحت الآلة بعيداً عني، ووضعت رأسي على المكتب ونمت، ولم أنتبه إلا لصوت الطبيب يوقظني. نظرت إليه وهو يقلب الأوراق، ثم تأملته أكثر وهو يشير إلى العنوان الجديد الذي اخترته، وكالعادة اندهشت أني كنت أكتب عن بلد المنفى الذي اقتحمته أنا وصديقي البولوني دون أن نعرف عنه أية قصة.

١٣

لقد نزل الحلفاء...

امتدّ إليّ الصراخ داخل العيادة. لم أفهم بالضبط ما عنت الجملة، إلا عندما وقفت عند الباب ورأيت الحراس وهم يسحبون الشاب البولندي، الذي ندت عنه الصرخات. بعض المعتقلين استطاعوا أن يروا المشهد منذ بدايته، وكورسكي من بينهم. اقتربت منه متسائلاً:

- ما الذي حدث بالضبط؟

- لقد نزل الحلفاء في ميناء الجزائر.

- وهل هذا أكيد؟

- لا أعرف ولكن الشاب قال إنهم نزلوا منذ أيام وإنهم حتماً سيأتون إلى هنا لتحريرنا.

- أتصدق هذا الكلام؟!

- ولم لا؟

لم يكن غريباً أن ينزل الحلفاء في الجزائر، وربما قضوا وقتاً أطول في الميناء، ولكنهم لن يفكّروا في العبور إلى الصحراء. كنت متأكداً من ذلك، مع أن أغلبيتهم ما كانوا ليتفقوا معي، أرادوا أن يصدقوا

أنهم سيفيقون في يومٍ ما، وهو قريب، ليروا الشاحنات الإنجليزية والأمريكية، والجنود وهم يحاصرون المعتقل، من أجل تحريرهم. لم أجرؤ أن أقف في وجوههم وأصرخ: "لا تنتظروا أي أحد، إن الحلفاء لن يفكروا بكم، إنهم حتى لا يدركون أنكم هنا". كانت بالنسبة لي كلمات أقسى من أن تُقال دفعةً واحدة، وتركتهم للوهم الذي يجعل الحياة تستطيل أكثر. البعض يقول إنه الأمل، وآخرون يوافقون على أنه مجرد وهم، ثم يندفعون تجاهه بشراسة.

لم يكن منطقياً ما يحدث داخل المعتقل وحتى خارجه. سحبت نفسي عائداً إلى العيادة، ووجدت الطبيب يسألني عن الفوضى في الخارج. أجبته مستخفاً بالأمر، وبجدية حدّثني عن نزول الحلفاء، وأن أشياء كثيرة ستتغير، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بالمعتقلات، وشرع يشرح لي الطريقة التي تعمل بها اللجان التي تأتي أحياناً، وأنه بعد النزول ربما سيُسمح للجان أخرى أن تزور المعتقلات وتحرّر مواطنيها من هناك. ومع ذلك لم أكن متحمّساً، ولم أتمنَّ أن تكون اللجنة الإسبانية هنا. وبالنسبة للآخرين سيكون الأمر مختلفاً، سيأتي الروس، وربما البولونيون والإنجليز لأخذ عمالٍ جدد، ويرث الجمهوريون ربوة الريح.

في نهاية الأسبوع سمعنا صوت السيارة، ثم تجلّت من بعيد مختلفةً، أصغر حجماً من التي يملكها ممثلو القنصل الإنجليزي، وليست كذلك سيارة السيد كابوش. وتسلقت مثل خنفساء الربوة، ثم عبرت البوابة إلى باب الإدارة، أين وقف غرافال بانتظارها. نزل منها ثلاثة أشخاص، تفاجأ لرؤيتهم كورسكي:

– إنهم بولونيون، رأيت وجوههم في القنصلية البولونية في فرنسا.

وتذكرت كلمات الطبيب عن اللجاْن التي سيُسمح لها بزيارة المعتقلات، ونظرت إلى صديقي المتفاجئ:

– لقد أخبرني الطبيب عنهم.

– وماذا قال؟

– سيُسمح للجان أخرى بأن تأخذ معتقلين.

– من يدري، ربما هذه أولها!

بدا صديقي البولوني متشكّكاً في نيّة الذين دخلوا للتو مبنى الإدارة، ولكنه حين أمعن في الطريقة التي تكلم بها غرافال إليهم تأكّد أنهم بالفعل من اللجنة، وأنهم سيأخذون معهم مجموعة من البولونيين، وارتفعت نبضات مواطنيه الذين سمعوا حوارنا، كان الأمل أو الوهم هو الذي حرّك فيهم النبضاْت وجعلها تصرخ داخل صدورهم. اجتمعوا في الساحة دون أن يُطلب منهم، مما جعل الحراس يصرخون في وجوههم أن يتفرقوا، ثم للحظات فرّقتهم سيارة المدير التي دخلت المعتقل. وعدتُ بدوري إلى باب العيادة، حيث وقفت وصديقي البولوني نشاهد بقية الأحداث، ولم يجرؤ أحد من الحراس أن يقترب منا. كانت حظوة المدير والصبائحي تحرسني وصديقي وتهوّن من الأيام القادمة.

لأول مرة يخطئ صديقي في تقديراته، إذ لم يكن هؤلاء الأشخاص من القنصلية البولونية، مع أنهم بولونيون. كانوا ممثلين للمنظمة الأوروبية، وربما تلك هذا جعلت غرافال يعاملهم بطريقة مختلفة،

حين شعر أن الأمر جدي، وليس عليه إلا الرضوخ لمطالبهم. ولم تمضِ إلا دقائق من إرسال الحارس حتى وصل المدير، الذي استقبلهم أيضاً بطريقة مختلفة. لم يُرد أن يثير المشاكل حوله، وكذلك اللجنة لم تبحث عن تفاصيل الحياة اليومية للمعتقلين، بل طلبت بعض الملفات، ولساعة قضّتها في الإدارة كتبت خلالها القائمة، وفي اجتماعنا نودي على عشرين اسماً، جميعهم من البولونيين، قالت المنظمة إنهم سينظمّون إلى الجيش البولوني، وكان كورسكي بينهم. شعرت بالفرح الممزوج بالحزن، وبمرارة الأيام القادمة بدونه، وبدا هو مثلي، وكأنه ألف الحياة هنا ولا يريد الرحيل، أو أن التوقيت لم يكن مناسباً، وبعد أن هنّأته سحبت نفسي وسرت لأهنّئ البقية. اجتمعوا في الساحة، وأحاط بهم الجميع يهنئونهم، وتبادلوا العناق معتقدين أنه يومهم الأخير، ولكنهم تفاجأوا بالمدير يعلن على لسان اللجنة أنها ستعود بعد شهر أو أكثر من أجل اصطحابهم، وهكذا عاد التجهّم إلى الوجوه. كانوا يعلمون أن اللجنة ستعود وتحررهم، ولكن الوقت هو الذي جعلهم يضجّون ويرمون خلف السيارة السباب والصرخات المحتجة، ما عدا صديقي البولوني الذي شعرت أنه سعيد بالتأجيل، ربما أراد أن يكتشف المزيد من الأسرار. وانتابتني نفس الرغبات لو أنهم اختاروني لأن أذهب، كنت أحزن وأنا الذي لم أعرف بعد قصة الأمير المنفي إلى جلفا. وحين لم يتبقَّ إلا يومان على العطلة، اشتقت للخروج ورؤية تفاصيل وجه السلمي وتجاعيده القديمة، وربما طربوشه الغريب، ودكانه الذي يبيع فيه كل شيء، حتى تحذيراته عن الرسائل، التي تذكرتها وأنا مستلقٍ على فراشي. قفزتُ

من هناك مسرعاً إلى حيث خبأتها، ثم قرأتها جميعها، وانتبهت بالفعل إلى ما قاله السلمي عن الكلمات التي تُشطب أحياناً، كنت أعتقد أن باتريسيا هي التي تقوم بذلك، ولم أفكّر حتى في سؤالها، وتوالت الاكتشافات الأخرى. دوّنتها على ورقة صغيرة، وقررت أنني لن أتجاوز هذه الليلة حتى أكتب رسالةً طويلة، أتكلم فيها عن كل شيء يحدث في المعتقل، ولن يراقب أحد كلماتي، ولن يقوم بالتشطيب عليها، وسهرت حتى أتممت الصفحات، بالنسبة لي كانت مجرد مسودة للآلة الكاتبة، ثم نمت دون أن أرى أية أحلام، حتى بابلو لم يلجها منذ زمن وأضحى مثل قصةٍ عميقة منهكة، ولن تتكرّر إلا عندما نفيق في سيّيرا أو ربما ونحن نموت في "عين الأسرار".

لم تكن رسالة باتريسيا جزءاً من الأوراق التي يهتم لها الطبيب، ولكنه قرأها مساء ذلك اليوم. سحب الأوراق بخفة، لم أنتبه له، وانشغلت بالكتابة، وبعد أن أتّمها نظر إليّ:

– ما هذا يا مانويل؟ لماذا كل هذا السباب؟ لم يكن أسلوبك هكذا.

– لا. تلك الأوراق ليس لها علاقة بما أكتب.

– ولكن الموضوع نفسه.

– إنها رسالة إلى زوجتي...

– فهمت، ولكن هناك أشياء يجب أن تعيد النظر فيها.

– إنها مجرد مسودة.

لم أقصد خداع الطبيب، عندما آمنت أن الرسالة في صيغتها النهائية، ولست مستعداً أن أحذف أي حرف، ولكنني كذلك لم

أرد أن أدخل في دوامة اعترافات أخرى لا طائل منها. كان طيباً بما فيه الكفاية أن أجنّبه سوء الفهم الذي ربما سيحدث بيننا، وفضّلتُ التكتّم على بعض القصص، واعتقدت يومها أنه يحق لي أن أكون كتوماً، لأستطيع أن أكمل الخطة التي رسمها السلمي في العالم السفلي، وخمنت أن نتيجتها ستكون مختلفة. وبالفعل، في نهاية الشهر وصلت رسالة من باتريسيا فيها أخبار لم أتوقّعها، انفجرت مثل الأسرار التي تكتنف هذه القرية، وذلك النبي الذي يرتدي طربوشاً يخفي فيه كل القصص الغامضة.

حمل الطبيب الأوراق ورحل، ووضعت الرسالة في جيب معطفي الصوفي، ثم خرجت خلفه، وفي طريقي مررت بكوخ البولونيين، وجدت صديقي يقرأ كتاباً، قال إنه أحضره من البيعة. قلبته ولم أفهم منه أي شيء، وأردف أنه سيرة لبعض الحاخامات، ولم أرد الدخول معه في تفاصيل أخرى، ولكنه فتح الكتاب على الصفحة التي توقف فيها، وحدثني عن رابي حكيم، نسيت اسمه، أعتقد أنه عَقبياً، وبدا أنه يجد شبهاً بينه وبين الرابي يعقوب، بالرغم من مقدار السنوات التي فصلت الرجلين عن بعضهما، ولكنه آمن أن الروح لا تعترف بالأزمنة، ثم أغلق الكتاب ووضعه إلى جانبه، وعاد بوجهه إلي، كأنه يريد أن يبوح بسر، ثم همس:

- أتعرف يا مانويل، لم أرد الخروج اليوم، وسعدت بالتأجيل. لن يعرف البقية هذا الكلام، يجب أن تعدني.

كنت أعرف جزءاً من الأشياء التي يريد البقاء من أجلها أشهراً أخرى، ولكن الفضول دفعني لأن أسأله:

- ما الذي يجعلك تتصرف هكذا، والجميع يريد الخروج اليوم قبل الغد؟

- ولماذا تدّعي أنك لا تعرف؟

- بالفعل أنا لا أعرف.

- الأمر له علاقة بالرابي يعقوب وقصة منفاه. ولا تنسَ أيضاً أنني صرت الآن جزءاً من البيعة وأقوم ببعض الطقوس هناك.

- أعلم، ولكنك أيضاً كنت متحرقاً لأن تعرف سرّ المقبرة ثم عدلت عنه.

- لم أعدل إلا حين عرفت سرّها، وزرتها مع أحد العرب. ما رأيك؟

- أهذا صحيح! حدّثني عن السرّ إذن؟

رجوته كثيراً أن يخبرني ولكنه أبى، ليس لأنه لا يثق بي، ولكن الذي أفشى له السر استحلفه ألاّ يبوح لأحد، ولكني استطعت أن أعرف أشياء، مثل أن بعض المسلمين فقط يدفنون فيها موتاهم، وتتجه البقية إلى المقبرة الخضراء.

من الأشياء التي بقيت غامضة بالنسبة لي أن اليهود والمسلمين كانوا أكثر الذين يتحدثون عن الموت والمقابر، وكأنّ الحياة لم تكن تعنيهم في شيء. لاحظت أيضاً أن كورسكي والصبائحي لديهما بعض الجمل المتشابهة، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالموت، ولا أقصد من وجهة النظر الدينية بقدر ما فكّرت في علاقة الإنسان بالمكان، وهل هناك تأثيرات تجعل رجلاً قادماً من وارسو يتكلم عن الموت مثل رجلٍ عاش جزءاً كبيراً من حياته في الصحراء؟ وكلما فكرت في هذا الموضوع، مبعداً

الدين عن تفكيري، أجدني بطريقة أو بأخرى أعود إلى الله الذي مثلما قال عنه صديقي البولوني: إنه في الصحراء قريب جداً من البشر.

وإذا فكّرت بطريقته فإني أفهم أنه يتكلم عن فكرة الله التي هاجرت إلينا نحن الأوروبيين، ولم نكن في يوم ما لنعرفها لولا الصحراء، التي تتسرب إليه وتسحبه بقوة إليها. وقد وجد ما كان يبحث عنه من هوس. قلت ذلك وفكرت في أي الأشياء التي قد تجعل شخصاً مثلي يفكّر في البقاء في مكانٍ مثل هذا؟ ولم يكن سوى الهوس، هو الذي يجعل من الرجال أنبياء، أو ربما شياطين، وشعرت أنني لن أملك شجاعة بابلو ولا روحانية كورسكي. تنهدت بعمق، وغادرت كوخ البولونيين بأسف، لم أتخلّص منه إلا وأنا متمدّد على فراشي.

ماذا لو كان بابلو في كافارولي؟

هجم عليّ السؤال وبحدة عندما ارتفعت القلعة أمامي. للحظات تخيلته وحيداً في الغرفة (ب)، تتسرّب إليه البرودة ولا يُسمَح له بإشعال النار، ولكني عدت وفكرت أنه لو حدث ذلك لكان الطبيب قد أخبرني، وطردت كل هواجسي بعيداً وأنا أعبر البوابة إلى الشارع الرئيسي، حيث رأيت بعض المعتقلين ينظّفونه، وما إن رأوني أمرّ ببدلتي الجديدة حتى فغروا أفواههم وظلت أعينهم معلّقةً بي إلى أن انعطفت إلى مقهى لابوست. ومن بعيد لم يتراءَ لي الصبائحي بنرجيلته. عبرت الشارع مفكراً به، وجلست حيث اعتاد أن يجلس، ثم طلبت النرجيلة والقهوة وجعلت أنفخ مثلما كان يفعل، ولنصف ساعة انتظرته أخلف فيها موعده، ثم وقفت ونقدت النادل وسرت عبر شارع بوا دو جلبار، قاصداً دكان السلمي، وبعد أن قطعت نصف

المسافة سمعت صوتاً ينادي على اسمي، بدا غريباً بلكنته، وكذلك في مكان لا تعرف فيه أحداً، تسمع اسمك يتكرر عدة مرات، وحين التفتُّ وجدته، الصبائحي ببرنس مختلف، أحمر يميل إلى السواد، وبعمامة نيلية. صافحته وسرنا بقية الطريق إلى وجهتنا، ولم تمرّ إلا دقائق حتى كنا عند السلمي. عانقه الصبائحي، ثم اعتذر وغادرنا، ودخلت أنا الدكان. لم أعرف لماذا غادر مرافقي بسرعة، ولكن السلمي قال إن ابنه مريض وأن التيفوس قد بدأ بالانتشار بين البدو خارج السور. خمّنت أنه حتماً سيصل إلى المعتقل، وفكرت في العودة إلى هناك وتحذيرهم، ثم عدلت عن الفكرة لمّا تذكّرت حرص المدير على حياة عماله، وعدت أراقب تفاصيل وجه السلمي وطربوشه العجيب، كان صغيراً ومستديراً، اعتقدت في يوم ما أنه قبعة، مما جعل الصبائحي يضحك حتى سالت دموعه، ولكنه اعتذر بعدها وصحّح لي خطئي. أما السلمي فكان معتدلاً في كل شيء، في ضحكه وغضبه، وحتى في سرده القصص وتحليله لها. ومع أن أغلب العرب لم يواصلوا تعليمهم، إلا أنه قرأ أشياء كثيرة كنت أجهلها، وهُيئ لي أنه منتم لحركة سياسية مناهضة للسلطة الفرنسية، ولكنه لم يتكلم عنها، وبقيت أحاديثه كلها عن الأمكنة التي حولنا، والناس الذين عبروا من هنا. وإلى ذلك اليوم لم أكن قد رأيت لوحة صيد الصقور التي كانت معلّقة على جدار غرفة الضيافة، وكانت نسخةً أصلية مهداة من الرسام الفرنسي أوجين فرومنتان إلى جده، بعد أن رسمها من وحي المكان، يوم زاره قبل تسعين سنة.

تأملت اللوحة طويلاً، وفي كل لحظة كنت أعود إليها. لم أعرف

لماذا بدت لي غامضة، وأن الرسام لم يكن يريد أن يظهر بعض التفاصيل، أو بالعكس أنه أراد أن يروي قصةً غير التي تتكلّم عن الصيد، ولكنني مع ذلك تجاهلتها وبحثت عن فرصة لأسأل السلمي عن الأمير. التفتُّ إليه فجأةً، واكتشفت أنه يحدق في الساحة التي أمام الدكان، وقررت لحظتها أن أسأله عن الأمير، ولكنني فوجئت أنني أتكلم عن شيء آخر:

- ماذا هناك يا سلمي؟

- لا شيء، شردت قليلاً.

- ولكنك تنظر دائماً إلى الساحة. هل حدث شيء هناك؟

صمت السلمي طويلاً، ثم تنهّد ونظر إليّ متفحصاً، وكأنه متردد في البوح بسرٍّ حمله طويلاً، ومع ذلك لم يجبني عمّا سألته، بل عن الذي جاء بي من المعتقل، وكنت شاهداً غريباً على قصة غريبة، حدثت منذ أكثر من خمسين عاماً، في هذه المدينة التي وصمت منذ البداية بأن تكون منفىً قاسياً لكل الذين اختاروا التمرد.

وتكلّم السلمي بعد أن ركّز عينيه بشجاعة على الساحة:

قبل خمسين سنة، في بداية شبابي، مرّت العربة من هذا الشارع. نظرت إليها مثلما رآها السكان، وقد جلس بها ذلك الشاب الأسيوي وإلى جانبه زوجته، وأحاط بهما الحراس من كل جانب على خيولهم. وإلى تلك الفترة لم أكن قد اخترت وظيفةً معينة، وفي كل يوم أختار مهنةً ولا ألبث أن أتركها، وتفطّنت أن هناك باب رزق فُتح لي مع القادم الجديد، فتتبّعت العربة خفيةً، إلى أن بلغت شقةً صغيرة في نهاية الطريق.

صحيح أنه كان يوقف هناك حارس عند البوابة، ولكني استطعت أن أتفاهم معه، وتركني أمرّ كل يوم أمامها، أحياناً أجد الباب مفتوحاً وأرى الشاب هناك، جالساً في الحديقة مع زوجته، إلى ذلك اليوم الذي دعاني فيه أن أشاركه الطعام، ومن ثم أصبحت مسؤولاً عن بعض الأعمال، من بينها لعبته المفضّلة، الشطرنج. وبالرغم من الهزائم التي أُمنى بها إلا أنني لا أستسلم، وأعيد الدور عدة مرات، ولعل إرادتي القوية في المواصلة كانت محببة إليه. ولم تكن زوجته أيضاً تختلف عنه، تدعوني لأشاركهما الطعام، أجلس قبالته عند المائدة، وتعمل هي على توزيع الطعام. وبعد ستة أشهر فقط عرفت القصة التي أتت به من كمبوديا إلى جلفا. كان أميراً وابناً لولي العهد، في الفترة التي كانت فيها كمبوديا مجرد مستعمرة فرنسية، ثار من أجل ذلك، وحين زار مرسيليا قال الكلمات التي لم تعجب أي أحد، سواء الذين في فرنسا أو أولئك الذين خلفهم في وطنه، وهكذا سار عبر الطريق الذي سار فيه العديد غيره، من ميناء مرسيليا إلى ميناء الجزائر ثم جلفا، بعيداً عن كل شيء. كان يحلم بالسمك الذي أحبه، ولكنه لم يجده هنا، وطلب مني بعض الأشياء البسيطة والغريبة، وكنت ألبيها بسرور، ولكنه انحدر، وأخاف أن تنحدروا مثله.

تخلّفت عنه لأيام، وعندما زرته وجدت زوجته متعبة، أما هو فقد أغلق الغرفة على نفسه منذ يومين، يشرب ويبكي، وينادي أصدقاء خلّفهم في آسيا. ناديته أن يفتح ولكنه رفض، وترجّته زوجته وأبى أن يجيبها، واستمر في البكاء، ثم لم نعد نسمع أي شيء. اضطررت أن أكسر الباب وأدخل إليه، وجدته ممدداً فاقداً للوعي، وزجاجات الخمر وأعقاب السجائر تحوطه من كل جهة. ناديت الحارس ليساعدني على حمله، وطلبت عربةً وأوصلناه إلى المستشفى العسكري، وبعد يومين عدنا به إلى شقته، متعباً ومنهكاً من الخمر التي شربها والأفكار التي يحملها في رأسه، إذ اعتقد أنهم سيعيدونه بعد شهرين أو ثلاثة ثم مرّت سنة دون أن يتفقده أحد، حتى أصدقاؤه لم تصله أي رسالة منهم، وكأنه بُتر ودفن في مكانٍ مجهول. كان يردد دوماً الكلمات نفسها وهو ينظر إلي: "لا تثق في الشعوب، إنها لا تحب إلا جلاديها، وخطئي أنني أردت لهم الحرية. الفرنسيون لا يريدونهم إلا عبيداً، وأنا أردتهم أن يكونوا بشراً أحراراً".

كم مرة أغلق على نفسه الغرفة، وكم يوم صحبته فيه إلى المستشفى، لا أدري، حدث ذلك كثيراً، في السنوات الأربع، وحتى بعد أن ولدت زوجته صبياً، وفكرت أنه سيتأقلم ولكن ذلك زاد من ألمه، وكلما رأى الطفل يتوتر ويتضاعف حزنه، ولا نسمع إلا صوت

الباب وهو يقفل. ننتظر عودته لساعات، ونضطر إلى كسر الباب وحمله إلى المستشفى، إلى اليوم الذي توقف فيه عن البكاء.

في نهاية مارس، عندما بدأ الثلج يجلّل الأسطح، كسرت الباب لآخر مرة، وجدته ملقى بين أكوام من الرسائل، كانت نسخاً من التي أرسلها طوال السنوات الأربع، يرجو تغيير إقامته. رميتها بعيداً عنه، وحاولت جسّ نبضه، وذهلت إذ كان متوقفاً. لم أخبر زوجته، وأخذته بمعونة الحارس إلى المستشفى، ولحقتني زوجته، وكأنها حدست النهاية. طُلبت إلى التحقيق، وشهد الحارس والزوجة لصالحي. في المساء أطلقوا سراحي، ولكني لم أستطع تجاوز الأيام الأولى بسهولة. كل يوم أذهب إلى الشقة، أراقب الباب، وأطلّ من النوافذ باحثاً عنه، مع أني رأيت العربة وهي تأخذ الصندوق إلى الجزائر، ليعاد إلى كمبوديا، وبالرغم من أنني لوّحت أيضاً مودِّعاً زوجته وابنه، ولكني أردت أن أرى تجلّيه في الأمكنة التي جلسنا فيها، ودخّنا السجائر ولعبنا الشطرنج، وضججنا فيها. لم أرَ أي شيء، ما عدا جدران خاوية تمتص البرودة وترسلها موتاً إلى كل من يقترب منها. ربما فكرت في جلفا يومها بتلك الطريقة، ولكن مع كل السنوات التي مرّت حاولت نسيان ما حدث،

واعتقدت أنني تصالحت أخيراً مع المكان.

لحظتها أدار السلمي وجهه إليّ، بعد أن كان يحدّق في الساحة، وتساءلت إن كانت لها علاقة بما حدث، أم أنها قضة ثانية تحمل مقداراً لا يستهان به من الألم. ولدقائق أخرى تأملت وجهه الذي خلا من كل التفاصيل، ثم قام فجأةً، دخل بيته وعاد حاملاً إبريق الشاي. سواء كانت حركة افتعلها، أم أنها عفوية، ولكنها طوت القصة إلى اللانهاية، ومع شربي الرشفة الأولى كطقس تسرّبت إليّ كل اللعنات الآسيوية، التي لم أكتشفها إلا عندما كنت مولياً وجهي تجاه المعتقل، بينما جلس السلمي قبالتي يرتشف من شايه هادئاً مثل نبي، يحمل الحكمة إلى العالم الذي حوله، ويحدق في الساحة بريبة أصابتني مثل العدوى، وأصبحت أيضاً أحدق فيها، وبالطريقة نفسها، حتى إنه انتبه إلى سهومي وسأل:

- أين ذهبت يا مانويل؟

- ليس إلى آسيا، قلت ذلك مبتسماً.

- هل كتبت الرسالة؟

- إنها هنا.

وتحسّست جيبي، وهُيئ لي أنني نسيتها في المعتقل، وقفت فجأةً مرعوباً، ولكن حين فتّشت جيداً وجدتها مختبئة في جيب البدلة الداخلي. سلّمتها للعجوز، وضعها في ظرف أمامه وطلب إلي أن أملي عليه العنوان، ثم قلب الظرف وكتب عنوانه، واسماً لشخصٍ فرنسي، ونظر إلي مبتسماً:

- أنت الآن ميشيل.

وفهمت ما يرمي إليه بسهولة، وهو الذي يعرف كل شيء عن هذه المدينة. لم يمتد الوقت كثيراً عندما وقفت أودّعه، وسلكتُ بوا دو جيلبار، وسرت بتمهل إلى البوابة التي حجبتها عني وجوهٌ كثيرة، مختلفة التفاصيل، عيون زرق وبنية وسود، تجاوزتها كلها وخلفت السلمي كما ولّيت بوجهي تجاه المعتقل.

شعرت باستطالة الجسر، وكأنه امتد إلى نهاية الرؤية، وكانت العربات تمر مسرعةً، تسحبها الأحصنة، وأخرى صغيرة يقودها البشر. بدا لي غرافال في واحدة صغيرة، حاملاً السوط ويجلد الرجل الآسيوي الذي يسحبها، وغابت في الزحام. ثم رأيت بابلو يركض تجاهي، وخلفه تجري الكلاب، وأوشك أن يصدمني لولا أن قفز فوقي، وقفزت الكلاب خلفه، إلى أن بلغ حافة الجسر. حدق إليّ ونادى على سييرا، ثم قفز إلى الوادي. صرخت من مكاني وجريت نحوه، ونظرت إلى أسفل. لم يكن هناك أي شيء، وامتد الظلام أسفل الجرف حيث اختفى.

لم أصدق المشهد. أغمضت عيني بشدة ثم فتحتهما، رأيت الجسر مثلما هو، ولكن الظلمة بدأت تتسرب، وسمعت صوت عربة تقترب، إلى أن توقفت قربي. نظرت إلى الحوذي، وذهلت من أنه نفسه السلمي، ويطلب مني أن أعينه على إنزال التابوت من العربة. فعلت ما طلب مني، ثم سحبه وحيداً حتى بلغ حافة الجسر ورماه من هناك، بينما كنت أسمع صراخ الرجل داخل التابوت. ودّعني ثم اعتلى العربة، وغاب في الظلام، مخلفاً صراخ الرجل في رأسي، وأنا أعبر بوابة المعتقل.

١٤

شهرٌ مرّ على نزول الحلفاء ولم يحدث أي شيء. عدا المنظمة الأوروبية، لم يصل أي أحد إلى "عين الأسرار". وقف المعتقلون العشرون أمام الإدارة وطلبوا إلى غرافال مقابلة المدير. رفض في البداية، ثم وافق حين انضم إليهم آخرون وهدّدوه بالتوقف عن العمل. نادى أحد الحراس العرب وطلب إليه الذهاب إلى فيلا السيد كابوش، وبعد نصف ساعة سمعنا صوت السيارة، وتعلقت بها نظراتنا وهي تصعد الربوة، ثم وهي تدخل، حتى توقفت عند باب الإدارة، لتنتقل نظراتنا إلى المدير الذي سمعنا كلماته المعاتبة للضابط. نظر إلينا وطلب أن نختار أحداً يتكلم باسم الجميع، فاخترنا كورسكي، وكنت أعرف أنه في خبيئته لن يتوثب للخروج مثل البقية، ولكن أحداً لم يعرف ما دار في خلده لحظة أشار الجميع نحوه، ودخل بعدها غرفة المدير. لا أدري بالضبط ما الذي حدث هناك، ولكنه عاد بعد لحظات ووعد المجتمعين بأن المنظمة الأوروبية ستأتي بعد أسبوعين، وأضاف بأنه قرأ التاريخ في وثيقة رسمية ممضاة من رئيس المنظمة. صدّق الجميع كلماته، وغادروا الساحة مسرعين

إلى أعمالهم. وقف وأدار وجهه تجاه المدينة، تأمل أسوارها طويلاً قبل أن أناديه وأسحبه من الرحلة الروحية بسرعة. عرفت أنه لم يودّ أن يدخل هناك، كما أنه اكتشف أن الأيام أضحت قليلة. اعترف لي قبل أن يغادرني إلى عمله:

- لم يبقَ الكثير حتى نخرج من هنا.
- هذا شيء جيد.
- لم أحمل السلاح من قبل، ولا أريد أن أفعل ذلك.
- إن الجيش هناك يحتاجك، ويجب أن تستعد.
- صحيح، يجب أن أستعد.

بالرغم من أن المسافة الزمنية التي ربطتني بصديقي البولوني لم تكن طويلة، ولكنها إذا ما قيست بالأحداث التي عشناها سوية فإنني أجرؤ أن أقول إنني عرفته أعقل الجميع وأحكمهم، لولا الروحانية التي لم أدركها، لم تكن في نظري عيباً بقدر ما كانت مزية أتوق للحصول عليها، وحين أوشك أن أقترب منها تتسرّب مثل الماء، وتزداد كثافتها عندما أقترب من الأسوار، أما عندما أكون مع السلمي فإنني أستطيع أن أراها في تجسّدها الأخير.

غادرني دون أن يضيف كلمات أخرى، وسار إلى عمله دون أن يلتفت، وفي المساء رأيته يرافق الصبائحي إلى البوابة. لم أسر في إثرهما، كما لم أراقبهما مثلما اعتدت أن أفعل، وعدت إلى الكوخ مسرعاً لمّا تذكّرت أن هناك دروساً لم أعدّها، خصوصاً وأن المدير ألحّ على مضاعفة ساعات الدروس منذ أن كُتب اسم كورسكي في ملف المنظمة الأوروبية.

كنت وحيداً عندما زرت السلمي للمرة الثالثة. اخترت طريقا غير التي ألفت المسير بها مع الصبائحي. راقبت الجدران القديمة التي مررت بها، أردت رؤية السور من أمكنة مختلفة، وحتى انحناءاته التي تحتدّ في زوايا وتتّسع في أخرى. سرت حتى بلغت شارع "بوا دي جيلبار" من الجهة الثانية، وبعد أن كنت أتّجه جنوباً كي أبلغ السلمي، صار محله إلى شمالي، ومن مكانه فوجئ بي قادماً من تلك الجهة. دخلنا إلى الدكان وجلسنا مثلما اعتدنا. مدّني بكأس الشاي، وسحب الرسالة من درج المكتب، وسلّمني إياها مبتسماً: "تفضل مسيو ميشيل".

وكنت ميشيل في اللحظة التي أمسكت فيها الرسالة، ثم وأنا أسحب الأوراق من داخلها، وبدأت في تلاوتها، واندهشت!... هل ما تقوله باتريسيا حقيقي أم أنه مجرد وهم ؟ لم أعتقد يوماً أنها يمكنها أن تفعل ذلك، أو أن تتجرأ وتفكّر أنها يمكن أن تأتي إلى جلفا. مجرّد التفكير في الأمر يعتبر جنوناً، ولكن لمّا استمررت في القراءة فهمت ما ترمي إليه، فقد خرجت من باريس ليس لأنها أرادت أن تعود إلى إسبانيا. كتبتْ الجملة لأنها لاحظت أن أحداً يراقب صندوق رسائلها وشكّت أنها تُقرأ ثم تعاد إليه، لذا اضطرت أن تكتب معلومات غير حقيقية. ولكنها بالفعل غادرت باريس، عائدةً إلى مرسيليا، حيث التقت أحد الأصدقاء الفرنسيين الذين قاتلوا معنا في سييرا دي مويرتي. وقد ساعد الكثير من المعتقلين في الخروج من فارني، وأراد أن يساعدني أيضاً في الخروج من جلفا، وبالرغم من أن البدايات دوماً صعبة ولكنه تفطّن إلى صديقه، وهو قنصل في الدار

البيضاء، وخمّن أنه الشخص الوحيد الذي يمكن أن يثق به، ويطلب منه المساعدة. أبرق له في اليوم نفسه، وبعد أيام وصله الرد، طلب منه أن يأتي مصطحباً باتريسيا وكل الأوراق التي بحوزتهم.

عندما قرأت الكلمات الأخيرة زاد اندهاشي واتضحت لي الصورة حقيقةً، وأن باتريسيا حققت هي الأخرى الأسطورة التي ظلّت تحلم بها، وأضحت فيديليو حقيقي، والآن هي تسير إلى الدار البيضاء من أجل أن تنقذني. لم أعرف كيف أجازي السلمي على فكرته، وقفت وحاولت أن أتكلم، وعجزت حتى أن أحرك لساني، ثم عدت إلى الجلوس بطلبٍ منه، متسائلاً عن فحوى الرسالة:

– إذن هناك أخبار طيبة؟

– أجل. باتريسيا في الدار البيضاء من أجل مساعدتي.

– أهي زوجتك؟

– أجل.

– أهي قادمة إلى هنا؟

– لا. الوثائق هي التي ستأتي إلى المعتقل، وستبقى هي في الدار البيضاء.

– هكذا أحسن.

زيارة المدينة غيّرت كل شيء وقلبت حياتي في المعتقل رأساً على عقب، وبعد أن كنت أنتظر وعود اللجنة الأوروبية صار لي فيديليو يسعى إلى إنقاذي. كتبت بالآلة الراقنة في مساء اليوم الذي تلا وصول الرسالة:

لا تتأخر يا فيديليو، أنتظرك بحرقة، وأعرف أنك

ستأتي، في ثوب مختلف، ولكن حين تقف أمامي تأكد بأنني صرت شخصاً آخر، لقد حملت من "عين الأسرار" أشياء من الصعب فهمها، غريبة ومتناقضة مثل الصبائحي، وحمل جسدي جرح المنفي الآسيوي الذي رماه السلمي داخل تابوت إلى جرف، وقفز بابلو خلفهم، ولفظهم الوادي بسرعة ثم أرسلهم ريحاً عفنة نشرها في الحقول، وكنا في منأى عنه، أعلى ربوة الريح، نرى كل شيء ضئيلاً، مثل آلهة الإغريق، ولكننا لم نكن لنقرّر مصير المدينة، بقدر ما كانت هي التي تفعل ذلك، وتتوغل كمنفى فينا.

كتبت هذه الفقرة كبداية، وما إن قرأها الطبيب حتى أعادها لي وطلب إلي قراءتها من جديد، ثم نظر إلي وسألني عمّا أتكلم. وبالفعل لم يكن سير القصة بالنسبة إليه مبرراً، وهو الذي انتظر أن ألتقي فتاةً جميلة، وأقصّ عليه البقية، أو أنني ولجت حانةً ودعوت الفتاة الأولى التي مرّت بي إلى الرقص، ولكن ما أراده لم يحدث أبداً، مع أنني دخلت حانةً واطئة السقف، ورأيت وجوه العرب المتعبين المتلفعّين ببرانسهم وعيونهم المحمرّة من السهر. بعضهم بدأ الشرب منذ زمن، بينما فكّرت في أخذ كأس وحيدة، والعودة إلى المعتقل.

لم أطل الجلوس عند السلمي يومها، استجمعت قوتي وشكرته ثم عانقته مثلما يفعل الصبائحي وغادرت المكان، وخطوت تجاه الجنوب دون وعي. أردت أن أزور شقة الأمير الكمبودي، لم أعرف إن كانت موجودة بالفعل، ولكنني سرت حتى بلغت نهاية المدينة.

فكرت في العودة عبر الطريق نفسها، ثم قررت أن آخذ طريقاً ثانية، قطعتها حتى بلغت السور من جهة مختلفة. تأملت الفتحة التي أسفله، انتابتني رغبة عنيفة في العبور لم أقدر على لجمها، وعبرت بخفة من هناك. تراءى لي المدى السهبي موحشاً، لا شيء غير الخيام المتجمّعة في النهاية الشمالية للسور. خطوت إلى الأمام بضع خطوات، حدقت أثناءها في الأرض، ثم فجأةً رفعت رأسي، وانفجرت أمامي الشقة. فزعت أول الأمر، ثم تشجّعت وسرت خطوات أخرى إلى الأمام حتى بلغت الباب. كان الحارس يقف أمامه، وعجبت أنه لم يطلب إلي الرحيل. كان الباب مفتوحا حين رأيت الأمير الكمبودي يجلس في الحديقة، وأمامه طاولة الشطرنج، وما إن رآني حتى ناداني باسمي، خرجت الحروف سليمة من فمه: "مانويل، لقد تأخرت، ليس من عادتك، تعال وأكمل الدور الذي بدأته، أم أنك تخشى الهزيمة". جلست ألاعبه، وأبعدت الملك عن الحصار. نظر إلي وقال: "أنت شخص جيد، وتحب ملكك"، ثم حاصره من جديد، واضطررت أن أضع في طريقه الجندي بدل القلعة، وهنا احتدّ: "لهذا خسرتم الحرب. لم تملكوا أي شيء عدا الجنود، وفررتم بهم مثل كلاب إلى الجبال". وفي النقلة الثانية كنت قد حاصرت ملكه حصاراً نهائياً. وقف وأسرع إلى غرفته ثم سمعت الباب يصفق خلفه. جريت حتى بلغت الغرفة، ناديت عليه ولكنه لم يجبني. خرجت خائباً من عنده، وعدت إلى مكاني عند السور، أراقب ما سيحدث، وفي لحظات رأيت عربة بحصان يقودها السلمي تتوقّف عند الباب، ثم نزل وحمل تابوتاً بمساعدة الحارس وغادر مثلما أتى من دون وجهة. بدا كل

شيء مثل حلم، أغمضت عيني لأتأكد منه، ووجدت نفسي أصرخ داخل الصندوق، محاولاً الخروج منه، ولكنه كان مقفلاً بقوة، ثم اصطدم بشيء مثل صخرة، ولم أعِ الأحداث التي تلت المشهد. فتحت عيني مرعوباً، وسعدت أنه مجرد حلم، ولكنّ مرارةً أحاطت بلساني وتسرّبت إلى جسدي، وربما هي التي شعر بها الأمير منذ اليوم الذي نُفي فيه، وهي التي حملها بابلو والرابي والبقية من الذين دخلوا إلى جلفا، مع أني كنت خارج سورها، أنظر إلى القفر الممتد أمامي. فركت عينَي مراراً ولكني لم أرَ أي شيء، وأضحت الشقة حلماً، أو وهماً خرج من طربوش السلمي. سرت مسافةً في اتجاه الخيام، وبلغتها مع بداية الظلمة. وجدت الصبائحي ينظر نحوي بغرابة وهو يمددني داخل خيمته، وأصوات أطفاله تمتد إلينا. جاست عيناي المكان، وتحرّك لساني:

– أتذكر عندما قلت لي إن لك عشرة أولاد؟

– نعم أذكر ولكنهم الآن تسعة. لقد مات أصغرهم بالتيفوس.

تذكرت باتريسيا، وأمنياتها في أن تنجب طفلاً مني، وبكيت لحظتها وأنا أتذكر أنانيتي وإخلاصها، كنت شخصاً سيئاً للغاية. قلت للصبائحي الذي لم يفهم ما الذي يحدث لي، وهو يسمع كلماتي الممزوجة بالبكاء: "لماذا يحدث هذا؟ لماذا خيّبت أمل كل الذين أحبوني؟ باتريسيا أرادت أطفالاً، وبابلو تمنّى أن يكون محبوباً، وكورسكي اشتاق أن يتحول إلى آيةٍ في كتابه المقدس تُتلى كل يوم على الموتى، والأمير المنفي مات لأني حاصرته بالقلعة والوزير، وطفلك لم تقتله الحرب مثلما كنت أدّعي، بل مات بالتيفوس. هل

كان هذا عدلاً؟ لقد تخلّى الله أيضاً عنا حين كنا في سيّيرا".

لم أعرف ما حدث بعدها. قال الصبائحي إنني كنت محموماً، وتكلّمت بأشياء لم يفهمها قبل أن أغفو، وخشي أن تكون حمّى مميتة، ولكنني أفقت مبكراً، وسرت معه إلى المعتقل، ولحسن الحظ لم يكتشف الضابط غيابي، مع أنه لم يكن ليعاقبني، ولكني لم أرد أن أفسد الأمر الذي بدأته مع السيد كابوش على الأقل حتى نهاية الإجراءات التي بدأت في الدار البيضاء.

كان صديقي البولوني دوماً على حق إذا تعلق الأمر بنظرته إلى المدينة، ورغم أن أيامنا اختلفت والطرق كذلك اختلفت ولكننا التقينا، ليس في البيعة، ولا في شقة الأمير الكمبودي، ولكن في مكان آخر، موغل في نفسينا، وربما امتد أيضاً إلى البقية، إنه المنفى الذي يتسرّب عبر كل جدار داخل المدينة، وحتى خارجها، في "عين الأسرار"، وكبرياؤها الذي طغى على كل شيء. صديقي فهم اللعبة وبحث عن السرّ في العين التي في البيعة، لكني كنت أراه يعود خائباً كل سبت.

لم يجرؤ أن يتجاوز جدار الرهبة، ولم يعرف عن السيرة إلا فتات يمكن أن يخمّنها أي شخص دون أن يضطر إلى التضحية.

لم ييأس وهو ينحدر ثانيةً إلى الأسفل، غير أنه كان يخشى أن يكسر ألواح الوصايا وتتبعثر الحكمة قبل أن يصل إلى الجسر. بدأ يومه بالصلاة المعتادة، وودّعني ملوِّحاً بيده وهو يعبر البوابة. لم أعرف فيمَ فكّر لحظتها، ولكنّي خمّنت بعض الأشياء، منها أن هذه هي الزيارة الأخيرة له للبيعة، والسبت الأخير للذين يودّون أن يعترفوا بخطاياهم،

وللذين يريدون أن يودّعوا أحباءهم ويودعونهم الأسرار. في العين استعد المعتقلون لذلك اليوم، وقبل أن يرحلوا بيومين احتفلنا بهم. في نزولي إلى المدينة حملت كل ما استطعت أن أحمله من نبيذٍ جيد وحلوى، وصنعنا في المطبخ كعكاً وأطباقاً أخرى طلبها المعتقلون.

الحفلة اختلفت عن التي أقمناها قبل أشهر. سمحوا لنا باستعمال الموسيقى، وأعارنا الطبيب قارئاً للأسطوانات، وبالرغم من أنه قديم ولكنه أسعدنا بعلبة الأسطوانات التي معه. وبعد أن انتهت كل الترتيبات حملنا أشياءنا ووضعناها في الساحة حيث انتظرِ المعتقلون. وزّعنا عليهم الطعام والحلوى والنبيذ، وفاجأناهم بالموسيقى. قفز الجميع إلى الساحة يرقصون، وجلس كورسكي يراقبهم، لم يرقص معهم، مدّعياً أنه لا يحسِن ذلك. لاحظت حزنه، وحتى البقية اكتشفوه ليلة الحفل، وبعد أن أُنهك الجميع عادوا إلى خيامهم، عدا أولئك الّذين سيرحلون، جلسوا يتسامرون، وهناك زادت خيبتهم من حزن صديقهم، لم يستوعبوا ما أصابه، مع أنهم تكهنوا أن الأمر له علاقة بالمدينة، وأن شيئاً ما أصابه هناك. بعضهم همس أنها قصة حب مستحيلة، ووجدت مبرراً لتخميناتهم. أي شيء يمكن أن يضاهي الحرية، إلا التضحية، وأن تموت في سبيل المدينة التي ولدت فيها. كانوا يفضّلون الموت هناك في الجيش على أن يستمروا في العمل هنا، بينما هو كان يرى الأمر بطريقة مختلفة، مثل هوسه وجنوحه، الذي لم يرد لأحد أن يعرفه، أو أن يلج إلى العوالم التي بناها لنفسه. وقف مغادراً وخلّفهم محدقين به، مندهشين من تصرفه، وهم الذين انتظروا أن يقدّم لهم تبريراً لانعزاله عن الحفلة التي أقامها الجميع إكراماً له.

في الصباح انحدر إلى جلفا دون أن يعلم أحد من المعتقلين. كنت الوحيد الذي شيّعه إلى أن غاب بالأسفل. حدست أن شيئاً ما سيحدث. كما أنّ حدثني الصبائحي عن بعض الإشارات التي تدلّ على الموت والحياة، ولقرابة العالمين فقد صدقتها، وتجلّى لي الموت، رأيته واقفاً أمامي ينظر إلي بعينين باردتين، حدق بي وأسرع منحدراً إلى الأسفل، مثل خيط دخانٍ وهو يحلّق تجاه الجسر، ثم ينعطف إلى بوابة المدينة مختفياً عبرها. ربما الموت هو حارس السيرة المقدّسة للرابي يعقوب، ولم يكن يريد لأحد أن يعرف عنه أي شيء. ولكن كورسكي لم يبحث لرغبةٍ عابرة بقدر ما كان هوساً بالروحانية التي يضفيها على عاداته اليومية، هذا قبل أن يلتقي الرابي وتتكثّف الروحانية في مكانٍ واحد، بعد أن توزّعت في أماكن مختلفة، ووجد في شخصيته كل ما بحث عنه، وأراد أن يقتفي أثر سيرته الربانية، ولكن شيئاً ما حال دون تجاوزها. لم يخشَ شيئاً مثل الخيبة، ولكنه كان كل سبت يُمنى بها، ويضيف سرّاً آخر إلى "عين الأسرار".

عندما أظلمت لم يعد في موعده، ولم يمرّ عليّ في الكوخ. فكرت أنّ ما أصابني في المدينة قد أصابه، وأنّ الحمى قد غدرت به، خاتلتْه وهو يغادر البيعة وأسقطته، وأنه هناك بين يدي الرابي يتلو عليه آيات الشفاء اليديشية. سحبت نفسي وغادرت صوب كوخ البولونيين، فكرت أنهم ربما يعرفون شيئا ماً، أو أن كلمةً سقطت من فمه سهواً قد تقودني إلى ما عزم عليه، ولكنه لم يكن هناك، كما لم يكن أحد من البولونيين يعرف مصيره. عدت إلى كوخي، وجدتهم قد أكملوا أدوار الدومينو ويستعدون للنوم، الذي سبقهم العجوز إليه. سحبت غطائي

مثلهم وتمددت في مكاني، ثم أطفأت المصباح، وحدّقت في الظلمة طويلاً، ورأيت وجوه الجميع تحدق أيضاً بي، كل الناس الذين التقيتهم في حياتي، منذ أن كنت طفلاً: والدتي تقفز وهي تحملني، ووالدي يضمّها إليه ويقبّلني، وزوجتي وبابلو ووجوه الفلاحين في سييرا، وحتى وجوه النساء خلف براقعهن، والسلمي وطربوشه، وآخرهم كورسكي، يلبس مثل كاهن عبراني، يقطع صحراء سيناء باحثاً عن الألواح... ثم غاب كل شيء، وفتحت عيني. انتشر الضوء في الكوخ، وسمعت غناء أحد الإسبان، حملت نفسي وجلست قربه، وطلبت منه قليلاً من القهوة، ثم سألته:

- ألم تذهب اليوم إلى العمل؟

- اليوم هو الأحد، وهو يوم عطلة.

وتفاجأت أن قصة صديقي البولوني قد أنستني عطلتي التي عملت بجهد من أجلها. ارتديت البدلة وحملت الفرنكات التي تبقّت معي وعبرت البوابة. انحدرت مثلما فعل بالأمس، وعندما وصلت إلى الجسر رأيت الركب يقترب، العديد من الناس يرتدون السواد، ويقتربون مني، وتقدم بعضهم وهم يحملون نعشاً، ثم وصلوا إلى المكان الذي كنت أقف فيه. لمحته يتقدّمهم حاملاً النعش، لم أعرف من الميت، ولكن عدد الناس خلف الجنازة يوحي بأنه رجلٌ مهم، ولم يتوقف تدفق الناس إلى المقبرة، حتى بعد أن تجاوزني النعش مسافةً طويلة، ولمحت الصبائحي يسير مع بعض المسلمين خلف الجنازة، سرت نحوه وانضممت أنا الآخر إلى الركب، حتى بلغنا المقبرة الصغيرة، فتح أحد الرجال بابها ودخلت الأفواج بهدوء. لم

أفكر أن أقترب من القبر واكتفيت بالمراقبة من مكانٍ غير بعيد، قرب الحفرة. وضعوا النعش، وتكلّم أحد الشيوخ بكلمات لم أفهمها. قال الصبائحي إنهم سيختارون الذي يضع الميت داخل القبر، وحين سألته عن هويته همس لي أنه الرابي يعقوب.

امتد صمتٌ غريب إلى الغور، لم أستطع حتى أن أهمس له بسؤالٍ آخر. وبعد لحظات رأيتهم يجمعون المال، والذين تبرّعوا به هم الذين قاموا بالدفن، ثم رأيت كورسكي واقفاً عند القبر، ومعه مساعد الرابي، تأمّل وجه الميت، ورمى بعض الفرنكات الذهبية داخل القبر، ثم تأخر وترك البقية تقوم بعملية الدفن.

وقف عند شجرة الأوكالبتوس الضخمة منتظراً تفرّق المشيعين، وبعد ساعة رأيته يجلس وحيداً عند القبر. سرت حتى بلغته، ولكنه لم ينتبه لوجودي وشرع يكتب فوقه بحروف يديشية، ثم رفع وجهه إلي، وكانت الدموع تنهمر من عينيه، وقال: "إنها الجملة التي ظلّ يكررها، بالرغم من المآسي التي عاشها، والتي لم يودّ أن يتكلّم عنها: كل ما يأتي من الله فهو خير". هذا ما قاله الرابي وما دوّنه صديقي البولوني فوق القبر. أردت أن أعزّيه، وأن أقول كلمات أخفّف بها من حزنه، ولم يكن مجدياً ما أقوم به. لا يمكن أن تواجه لحظات السقوط إلا بالوحدة؛ طالما آمنت بها. وتجاوزت البوابة وخلفته وحيداً مع القبر.

كل الشوارع التي كانت قريبة من البيعة أغلقت دكاكينها، مع أن بعض مالكيها من المسلمين. كما لم أرَ أحداً هناك، وكأن الشوارع خالية من السكان. غيّرتُ الطريق متّجها إلى السلمي الذي لم يتعجّب حين قصصت عليه ما حدث له، وقال إنه أمرٌ عادي، ثم سألني:

- ألا يحدث ذلك عندكم؟
- الأمر هناك يسير بطريقة مختلفة.
- أعرف، فكلما اتّسعت المدينة تتفكّك العلاقات الاجتماعية.
- الحرب أيضاً تفعل ذلك.
- في الحرب يحدث كل ما هو سيئ.

وقبل أن أغادر السلمي سألته عن فيلا السيد كابوش. لم يعرفه شخصياً، ولكن الفيلا لم تخفَ عليه، وبعد أن وصفتها عرفها، واستغرب أن أسأل عنها والقليل فقط يهتم لقصتها. مالكها الأول عجوز إسباني، ظهر فجأةً في المدينة، اعتاد أن يجوب البادية بحصانه، يختفي لأيام ثم يعود حاملاً صخوراً وقطعاً من الخشب. قال بعضهم إنه يبحث عن الكنوز، ولكني رأيت مثله في مراكش، لم يكن باحثاً عن الكنوز التي يعرفها الناس، بل عن كنوز لم تكن تعني أي شيء لهم، ولكنه مات قبل أن يكتشفها. فقبل أكثر من سنة أسقطه الحصان عند باب الكنيسة، وحين تحسّسه الأب اكتشف أنه ملدوغ. لم تنفعه الصلوات التي تلاها عليه، ولا الماء المقدّس الذي دهن به الجرح، ومات هناك داخل الكنيسة، ولم تمضِ إلا أيام قليلة حتى وصل ابنه وباع كل أملاكه.

بعد أن أتمّ السلمي القصة نظر إلي:
- ولكن لماذا تسأل عنه؟
- إن الفيلا الآن تخصّ مدير المعتقل.
- وما المشكلة؟
- لقد باع ابنه مكتبة والده أيضاً.

- كان شاباً غبياً.
- ولكننا لا نستطيع أن نورّث هوسنا لأبنائنا.
- ولا يمكن أيضاً أن يعيشوا هكذا، في الفراغ.

قبل الحرب عشت الفراغ، وبعدها أصبحت أعيش من أجل أن أعود، ثم صارت العودة حلماً لا يمكن تحقيقه، وبدأ معه هوس المنفى يطاردني. كل ذلك يجعلني أفكر أن السلمي كان يقصدني لأنني رفضت الأطفال الذين سيحملون هوساً مستحيلاً في الحياة داخل إسبانيا، بينما تقترب الحرب منهم مثل دوامة وتسحبهم إلى داخلها. هكذا اعتقدت وربما كنت مخطئاً، وأن السلمي لم يقصد إلا الشاب الذي تخلّى عن كنز والده.

ابتسمت له وهو يصبّ لي الشاي، وحدقت في الساحة طويلاً، وقبل أن أعود بوجهي إليه سمعته يتمتم بكلمات لم أتبيّنها، وحدست أنه يقصدها، وهي التي لم تفارقه لحظة، ثم صمت وهو يسمع الرجل الذي يدعو الناس بصوته إلى المسجد. قام ودخل إلى داره ثم عاد بعد دقائق، خمّنتُ أنه غاب من أجل الصلاة، رأيت الصبائحي يقوم بها في المعتقل، هو وبعض الحراس، نظفوا مكاناً عند الأسلاك، وكلما يحين الموعد يسيرون إليها ويقومون بها بشكل جماعي، يعيدون الحركات التي يقوم بها من يتقدمهم، ثم يرفعون أيديهم ويتمتمون بكلمات قال عنها الصبائحي إنها دعاء إلى الله. وعندما سألته عمَّ يطلبه هو أجابني أنها كثيرة من بينها أن يرحل الفرنسيون، وأن تختفي الأمراض، وأن يدخله الله الجنة. لم تكن طلباته متناغمة، ولكنها بالفعل تخرج من أفواههم بكل صدق، وأعتقد أن أي إله حين يرى

وجوهاً ممرّغةً في التراب، وبطوناً جائعة، وأجساداً تتلفّع بالخرق، سيحقق لهم كل ما يريدونه ويهبهم الجنة التي يطلبونها.

لحظتها رفعت رأسي إلى السماء باحثاً عن مصدر تلك القوة التي تُسيّر هذا العالم، ثم سمعت كلمات السلمي: "لا تبحث عن شيء هناك"، وضرب بقبضته صدره، "كل شيء هنا".

وقفت وسرت بضع خطوات، ثم التفتُّ إليه وضربت أنا أيضاً صدري بقبضتي وأجبته: "بالفعل، كل شيء هنا".

قطعت الطريق دون أن ألتفت إلى أن بلغت بوابة المدينة، وعبرت الجسر مسرعاً، ثم نظرت إلى المقبرة الساكنة، وأكملت الطريق إلى الربوة. وكغير عادتي دخلت إلى المعتقل مبكراً، وجدت الكوخ خالياً إلا من العجوز، الذي لم يغادر فراشه منذ الصباح. ساعدته على الوقوف، وترافقنا إلى نهاية الأسلاك الشائكة، أراد أن يرى المكان الذي فرّ منه بابلو، ومع اقترابنا من المكان تذكّرت الأيام الأولى في فارني، وكيف مرّت، وحتى التفاصيل اليومية التي كنا نمرّ بها في جلفا، واليوم الذي نزلنا فيه من أجل جرف الثلج عن سكة الحديد. أعدت تفاصيل الأيام التي مرت على غياب بابلو، تذكرته ولم أنتبه إلى الدموع التي نزلت إلا بعد أن رأيت يد العجوز الممدودة بالمنديل، سحبته ومسحت الدموع، ونظرت باتجاه الشرق، هُيئ لي أن أحداً هناك يلوّح لي من داخل "المجحودة"، اتّضح من بعيد، إنه بابلو، وأوشكت أن أتسلّق السلك، ولكنه نبّهني في آخر لحظة: "إنه الوهم يا مانويل، لا تتبع الوهم"، وضرب على صدره بقبضته، "كل شيء حقيقي هنا. لا تنسَ هذا أبداً".

١٥

هل يمكن أن تتلخّص السيرة الربانية للرابي يعقوب في جملة وحيدة؟ لم أؤمن بالفكرة، ولكن كورسكي هو الذي قالها، ولمّا يتفوّه شخص مثله بكلمات عن الأسرار، فإنه يتوجب عليّ أن أصدق، ثم أصمت وأدعه يكمل سرد التفاصيل. جلس يقابلني داخل كوخه، ممسكاً الإبرة ويخيط حذاءً من الكتان، قال إن له علاقة بالحِداد، ولأني لم أكن أعرف تفاصيل الحداد عند اليهود، عدا لبس السواد، صمتُّ بقية الجلسة، وانتقل هو بين غرْز الإبرة في قطعة القماش وبين النظر إلي ليكمل القصة. شعرت أن كل شيء انتهى بموت الرابي، وأضحت كل السيرة مختزلة في الجملة التي حفرها فوق القبر: "كل ما يأتي من عند الله فهو خير". كرّرها همساً ثم قطع الخيط، ووضع الحذاء إلى جانبه، وحدّق في الظلمة خارج الكوخ وقال:

> اختلجت رجلاي في المنحدر، وأوشكت على السقوط، وحدست أنه نذير شؤم، فالسقوط لم يعنِ إلا الموت. أسرعت الخطوات تجاه البوابة، وعند الجسر رأيته يسبقني، مثل خيط النار، حلّق بسرعة

جنونية واختفى عبر البوابة. قلت إنني سأدركه قبل أن يتجاوزها، وكنت وأنا أركض خلفه كقابض الريح، ثم وأنا أعبر البوابة، وأقطع الشوارع حتى بلغت البيعة، ورأيت مساعد الرابي يقف عند الباب، يحمل دنّ الماء ويرشّ أمامه. وما إن التقت الوجوه حتى دارت الأرض بي، انهرت مثل جدارٍ قديم. رمى المساعد الدنّ وأسرع نحوي، وحين أفقت وجدتني ممدداً في الغرفة نفسها التي كان الرابي ممدّداً فيها، ونما في جسدي شعورٌ جديد، تمنيت لو أنني بالفعل ميت مثله، على الأقل أستطيع أن أتكلم معه، أن أعرف ما الذي حدث، ولكن الجدار زاد ارتفاعاً بيننا، وأضحى العبور إلى عالمه مستحيلاً. سألت المساعد: كيف مات؟ وما هي آخر الكلمات التي تفوّه بها؟ فأجاب بأنه أوصاني أن تُحفر الجملة التي لخّص بها حياته، التي لم أعرف إلا بعض القطع المتناثرة منها.

الرابي يعقوب وليد فاس قبل أكثر من ثمانين سنة، عاش حياةً مثل التي عاشها القدماء، يرتحل من مكانٍ إلى آخر، يبحث عن عالمه الذي ضيّعه منذ الولادة. أذكر يوم أشار إلى عالمه بقوله إن الولادة هي بداية البحث. لم يقصّ عليّ الرابي قصصاً كثيرة، ولكني بحثت عنها في كلماته، وفي الحكم التي يكتبها عنه المساعد، ودوّنتها من بعده. كانت تتحدث عن المدن

التي أقام فيها، مثل تونس، التي شغلت مكانًا أوسع في ذاكرته، وسُجن أيضاً فيها. بدت فكرةً غامضة أن يُسجن رابي مثله، وحين سألته أجاب بأنه سُجن بسبب كلمات مثل التي نكتبها. اتّهمته السلطة الفرنسية بأنه يثير الناس ضدها عندما حاور الضابط الفرنسي وأطلق حكمته التي يعرفها سكان المدينة جيداً، يرددونها حتى هذا اليوم في الأحياء الشعبية في تونس وينسخونها في كتبهم. يومها استدعاه الضابط إلى المركز وسأله:

– سمعت أنك تنعتنا بالأمميين وتقول إننا لا نختلف عن الرومان؟

– وهل هناك فرق بينكم وبينهم؟

– إنك لا ترى ما نبنيه هنا من جسور ومساكن. نحن نحضّر هذه الشعوب.

– إن ما تفعله الدولة الفرنسية هنا لا يختلف عمّا فعله الأمميون، يبنون الجسور والمدن بروح أنانية لأنها تعود عليهم بالمال ليس إلا.

وهنا صرخ الضابط في وجهه، ونادى على الحارس وطلب أن يسجنه مع اللصوص وقطّاع الطرق. وهناك التقى بلصٍّ ظلّ يسامره طيلة الليل، ومع طلوع الشمس قال كلمةً عدّها أيضاً سكان المدينة من الحكم، خرجت على لسان اللص. وبعد المسامرة اكتشف الخطيئة التي يعيشها، وقال له وهو يودّعه: "يا للعار!

انظر، أنا هنا لأنني سرقت، وأنت لأنك تدرّس شريعة الرب". وبالرغم من أنه أُعدم ولكن الناس ظلت توقّره وتذكر إيمانه في نهاية الحياة الفاسدة التي عاشها. كما ازداد تبجيلهم للرابي وصاروا يجتمعون إليه في البيعة، يطلبون النصح ويريدون بركته، مما جعل السلطة تقوم بحبسه عدة مرات متوالية. ولأنه كان في بداية شبابه فقد احتمل العذاب. غرزوا في جسده الحديد وطلبوا أن يعترف بدعمه للمتمردين، ولكنه تمسّك بالجملة التي أثارتهم وجعلتهم يضاعفون النار على جسده. "كل ما يأتي من عند الله فهو خير"، أعادها بعدد الضربات التي انهالت على جسده الممزق من التعذيب. ثم انتهى كل شيء وتركوه ملقى في الزنزانة، وأشاعوا أنه قد مات، ولكنه أفاق من موتته، وأضاف معجزةً أخرى إلى ما قام به من معجزات. ولكن الضابط الجديد بدا متعباً من المشاكل، ومع وصوله وقّع مباشرةً على أوراق نفيه إلى الجزائر، وإلى جلفا التي خدم بها ذات يوم ويعرف ما يعنيه المنفى هناك. سحبوا الرابي مقيّداً إلى المخفر، قضى ليلتين به، وحين قرأ وثيقة نفيه ردّد الجملة نفسها. حتى الحراس الذين ساروا به إلى هنا قالوا إنه بقي يرددها، وفي البيعة التي بجلفا لم ينسها وظل يبتهل بها صلاةً دائمةً بينه وبين العالم الذي ينتمي إليه.

ثم تمرّ أربعون سنة على مقامه، وأولد بعيداً بمئات الكيلومترات، ويلفظني لهب الحروب إلى منفاه بالصدفة، وأكتشف أنني أبحث عن هوسٍ اجتمع في إنسانٍ واحد، أحاول أن أتبع طريقه، ولكنني أفتح عيني وأراني ممدداً في الغرفة التي يموت فيها. وقفت واقتربت منه، وسحبت الوسادة من تحت رأسه، وضعتها جانباً، وقبّلته على جبهته وعينيه وخدّه. لم أجرؤ في حياته أن أتطلّع إلى تلك التفاصيل، ولكنني بعد موته أبلّلها بدموعي الساخنة، على وجهه البارد.

دخل لحظتها مساعده وطلب إلي أن أهدأ لأن الأرواح ستحزن من بكائي. مسحت دموعي وجلست في ركن الغرفة أتمتم بالآيات اليديشية التي كنت أحفظها، ثم اكتشفت أن عقلي يجنح بعيداً إلى عوالم الرابي التي رسمتها مخيلتي، وقضيت الليلة هناك دون أن أنام، وفي الصباح حملناه إلى المقبرة.

صمت كورسكي لدقائق وهمس بخلاصة السيرة، ثم وقف فجأةً وارتدى حذاءه وجعل يدور في الكوخ. لم أفهم ما انتابه، ثم عاد وجلس وأغمض عينيه وفتحهما، ونظر إلى الفراغ المظلم خارج الكوخ وقال:

– إنها هي يا مانويل. السيرة ما هي إلا حكمة نعيشها بصدق، ولا نتخلّى عنها مهما حدث. قد تتجلّى في آية أو في قصة، أو حتى في بيت شعر.

ثم صمت بعد ذلك، وخرجت من عنده إلى كوخي، عثرت في الطريق وسقطت، وشعرت بثقل في جسدي وكأنني أصبحت أحمل آلاف السنين وأسير في صحراء مظلمة دون ضوء. ثم فجأةً رأيت ضوء المصباح وتجلّى لي مثل النار التي رآها موسى. سرت ببطء حتى بلغتها، وولجت الكوخ في هدوء، وتمددت على فراشي مثلما فعل الرابي دون أن ينبس بكلمة، ولكنه عاش حلماً كُتب بآلاف الحروف.

بعد ثلاثة أيام رأينا سيارة المنظمة الأوروبية تصعد الربوة، وتتبعها شاحنة كبيرة. تعلّقت بها العيون في وَلَه وتسارعت النبضات، ثم اجتمع المعتقلون العشرون في الساحة، ولم يكن صديقي البولوني بينهم، وحين وصلت كان الجميع قد أعدّوا أمتعتهم وينتظرون الإشارة لإخراجها من الأكواخ، ولم يظهر أيضاً صديقي. توقفت السيارة عند الإدارة ونزل منها ممثلو المنظمة وساروا إلى مكتب المدير، ثم خرجوا ونادوا على الأسماء وسلّموهم أوراقاً أخرى، قاموا أيضاً بإمضائها، وظلّوا يرددون اسمه دون أن يجيبهم. شككتُ بأنه قد فعل مثلما فعل بابلو، ولكن ذلك لم يكن مبرراً، ونظرت إلى الجهة الشرقية فوجدته يراقب المجحودة. ناديته ولكنه لم يسمعني، فركضت إلى أن بلغته، وأخبرته أنهم ينادون على اسمه. عاد معي دون أن يتلفّظ بأي كلمة، ولكنه قبل أن يرحل قال إنه رأى خيال بابلو عدة مرات يلوّح له من داخل "المجحودة"، وأنه أوشك أن يتسلّق الأسلاك لولا أن الحراس مرّوا قربه، فأجبته بالكلمات التي كرّرها العجوز على مسمعي: "إنه الوهم يا صديقي. يجب أن تسير الآن، إنهم ينتظرونك هناك". وقبل أن يصعد الشاحنة عانقته عناقاً طويلاً،

ثم غادرت مسرعاً إلى الكوخ، لم أودّ أن أرى الشاحنة تنحدر عبر الربوة. تكررت مشاهد الوداع وصارت تثقل الروح بالألم، الذي لم أعد أحتمل المزيد منه.

في اليوم الذي تلا رحيلهم قدمت لجنةٌ أخرى، رأينا سيارتهم تتقدم، وترامت لنا من مسافة أنها نفسها التي قدمت بالأمس، ثم اقتربت أكثر واتّضحت لنا، ومع ذلك لم نتكهّن بالقادمين الجدد، وتوقفت عند باب الإدارة. استقبلهم الضابط غرافال ومدير المعتقل، وعرفنا أنهم ممثلو اللجنة الشيوعية، وسعد كل المعتقلين الشيوعيين الذين كانوا معي، ظنوا أننا سنغادر ولو بعد شهر، ولكن حين التقيت أحدهم عرفت أننا لن نغادر أبداً عن طريقهم، بالرغم من لائحة الشيوعيين التي سجّلنا فيها أسماءنا وسلّمتها بنفسي لأحد الممثلين، ولكنه كان مخيباً، غير مستعد للحركة التي قمت بها. صحيح أنه أمسك الورقة بيده ودسّها في جيبه بعد أن قام بطيّها، ولكن عينيه لم ترتاحا لما فعلت وظلتا ترقصان وأنا أكلمه، وكأنه يبحث عن شخصٍ ضيّعه داخل المعتقل، ثم ودّعني بسرعة والتحق بزميليه، ورحلوا بسيارتهم فجأةً مثل مقدمهم. لم يعدونا بأي شيء سوى المحاولة.

لحظتها فقط تذكّرت المعتقل الروسي الذي عبر معنا البحر المتوسط، والخيبة التي مُني بها وهو يرى الزعيم الشيوعي المُلهم يسقط مثل أي شخص تافه. لقد أرسلونا إلى موتنا، مثلما قال بابلو، وشربوا بثمننا الأنخاب في فنادق مدريد وباريس. لم يخطئ الفلاح الأناركي، والشاب الروسي. أصبحنا من الماضي، ولا ننتمي لهذا العالم، ويجب أن نُحرَم حتى من حق الحياة.

شيّعتُ السيارة إلى أن غابت، والتفتُّ إلى بقية الأصدقاء ممّن نظروا إليها على أمل أن تعود، ووددت أن أُفرغ ما في قلبي من حقيقة، ولكن وجوههم المترقّبة والمتلهفة للخروج منعتني، ووقف جدارٌ بيننا يدعوني أن أدعهم لإيمانهم، لأنهم بدونه لا يستطيعون الحياة. سمِّه أنت ما شئت، الوهم أو الأمل. غادرتهم وعدت إلى العيادة، وجدت الطبيب يحدّق في الأوراق التي كتبتها بالأمس، ويسألني عن السلمي وقصة طربوشه، وهل هي حقيقية؟ لم أعرف بمَ أجيبه، بالحقيقة التي أعرفها، وهي أنه رجل طيب يريد أن يساعدني لأغادر المعتقل، أم هو ذلك الشخص الذي أردت أن أكونه، ساحر يخزن كل المعارف في رأسه وكل تفاصيل الأمكنة وما تبوح به من مناف، وحتى طربوشه الذي يُخرج منه مدناً وشوارعَ وقصصاً لا يمكن أَن تُدرك، أهي حقيقة أم وهم؟ وربما أيضاً يسحبك إلى هناك، وتصبح جزءاً من عالمه، ويفاجئ بك منفياً آخر، وهكذا يستمر في خلق الحكايات والألغاز إلى نهاية الكون. هل سيصدق الطبيب كل القصص التي أعيشها هوساً يومياً؟ لا أعتقد، وسيقول إنها مجرد هواجس رجل نفي بعيداً عن وطنه واتّخذ السوريالية نصيراً له ليستطيع تجاوز أيامه في المعتقل، وربما هو على حق، ولكني لم أستطع، في الأخير، أن أجيبه إن كان ما أكتبه حقيقةً أم وهماً.

قرأ الطبيب جزءاً من سيرتي الملوّثة بالوهم. بدأت من سيّيرا وانتهت في بلد المنفى، وكل يوم تتوالى الأحداث، وتتوالى معها الأوراق التي يسحبها الطبيب من على المكتب، يطالعها ويتساءل عن بعض التفاصيل التي ربما لا أعرفها، ويضعها في محفظته ويرحل،

وأعود إلى البقية متعباً من التفكير في العوالم التي خلّفها لي أصحابها، والتي أضحت مثل الورطة التي لا يمكن الخلاص منها بسهولة.

بعد رحيل بابلو قلت إنني لن أستطيع أن أتجاوز يوماً واحداً في المعتقل، ولكن انفجرت أحداث فجأةً، والتقيت السلمي، وبدأت رحلتي الجادة في البحث عن الخلاص، ثم رحل كورسكي، العرّاف اليديشي، الذي لم أستوعب كيف رحل، مثل حلم بدأ خلف شاحنة في طريق "ريفيسالت"، وانتهى في جلفا، وبقيت موتوراً أكثر من الأيام السابقة. ربما اليوم فقط أصبحت مثل الأمير الكمبودي المنفي، وحيداً دون رسائل، دون أصدقاء، ولا أفكر إلا في الخيبات التي تراكمت عبر سنوات في الذاكرة، أعيدها مثل فيلم، بكل تفاصيلها ورجعها. ويمر أسبوعٌ آخر، أنتبه فيه إلى العالم من حولي، وكأن أحداً لم يكن هنا، تغيب وجوههم في وحشة المدى السهبي خارج المعتقل، وأبقى أنا أراقب المجحودة كل مساء، عسى أن أرى بابلو، علّه يقفز من فوق جدارها ويعود إلي، حيث أنتظره ليس مثل أي شخص، لنعود إلى سيّيرا، ونحقّق جميع أحلامنا.

عندما رأيت سيارة البريد تتسلق الربوة حدست أنها تحمل أخباراً جديدة، ثم فجأةً سمعتهم ينادون على بابلو. سحبت الرسالة بسرعة قبل أن ينتبه إليها الحراس ويصادروها، وحين وضعتها في جيبي انتبهت لمغلف داخل السيارة، وقرأت عنوان القنصلية الفرنسية في الدار البيضاء. عرفت أن أيامي في المعتقل باتت معدودة، وأن فيديليو يشتاق لرؤيتي أكثر من أي يومٍ آخر. عدت إلى العيادة، وسحبت الظرف من جيبي، وطالعت العنوان، من باريس، والمرسل

من شخص بدا لي اسمه مألوفاً. فضضت الظرف وفتحت الرسالة وقرأت، لم تكن هناك أسطر كثيرة ولكنها حملت مقداراً لا يستهان به من الوجع. لم أودّ أن أتخيّل الموقف، ماري تحتضر وتطلب إلى والدتها أن تكتب إلى بابلو تعتذر منه لأنها خيّبت أمله، وأنها ما زالت تحبه، بالرغم من أنه لم يتبقَّ الكثير، وفي نهاية الرسالة ملاحظة للوالدة تقول فيها إن ماري ماتت بعد ثلاثة أيام من كتابة الرسالة.

أيّ حظٍّ هذا الذي تملكه يا بابلو؟! حتى الفجائع تركض خلفك في غيابك، وتبحث عنك وأنت تفرّ بعيداً عن عالمها. أعدت الرسالة إلى المغلّف، لم أعرف ماذا سأفعل بها، وقررت أن أضعها مع بقية الرسائل التي أحتفظ بها، علّني أرى بابلو في يومٍ ما، يكون قد تخلّص من كل أحزانه، أعطيه الرسالة، يقرأها ويبتسم مع دمعة صغيرة تنزل على أيامٍ كانت الأحلام فيها محظورة.

في المساء رأيت الصبائحي واقفاً عند البوابة ينتظر. اقتربت منه وسألته:

- أتنتظر أحداً؟

- اليوم دور صديقك اليهودي للذهاب إلى التدريس.

- ألم تعلم أنه رحل!

وهنا ضرب بكفّه على رأسه ولعن النسيان الذي جعله يقطع مسافةً من أجل اصطحابه. ودّعني ونزل إلى الحانة مثلما اعتاد كل مساء، وبعد مغادرته عدت إلى الكوخ. وجدت العجوز وقد اعتدل في جلسته، وأحاط به الإسبان الثلاثة، وهم يلعبون الدومينو. لم ينادوني ولكني اقتربت وجعلت أنظر إلى القطع وهي تسقط الواحدة تلو

الأخرى، منتظراً الذي سيغلق اللعبة في الأخير ويأخذ جميع قطعهم، مثلما فعل بنا فرانكو في يومٍ ما، وربما ما يفعله بنا السيد كابوش ولكن بطريقة أقل فظاعة.

في نزولي إلى جلفا، طلبت من الصبائحي أن يرافقني، وصرخت رغبةٌ في داخلي أن أسير عبر الخلاء السهبي الجاف. وقبل أن تشرق وقف عند البوابة دون فرسه. ترافقنا حتى بلغنا الجسر، وقفت عند حافته وجعلت أنظر إلى أسفل، تخيلت أنني سأرى بابلو أو التابوت الذي رماه السلمي هناك، ولكني لم أرَ أي شيء. تجاوزناه ووصلنا إلى البوابة ولكننا لم ندخل، بل توجهنا شمالا حتى ارتفعت الربوة أمامنا، تسلقناها، وتراءت الأرض أكثر انبساطاً، وهكذا رأينا السور بجلاء، وقدّرنا الطريق التي سنقطعها، وعندما قطعنا نصفها ترامت لنا الخيام التي يسكنها الصبائحي، سرنا تجاهها وبلغنا خيمته، وجدنا زوجته واقفةً هناك تحمل طفلها، ويحيط بها البقية، الذين ما إن رأوه قادماً حتى ركضوا تجاهه وأحاطوا به وهم يصرخون: "أبي... أبي". تذكّرت الحلم الذي رأيت فيه الأطفال وباتريسيا، وقررت أنني حين أعود سأطلب منها أن تنجب لنا عشرة أولاد.

للحظات كنا داخل الخيمة، شربنا قهوة ودخنا سجائرنا، ثم سرنا بالموازاة مع السور، ومع رؤيتي للثقب الموجود فيه قلت للصبائحي:

– ألم يكن هناك بناء يقابل هذه الفتحة؟

– لا أذكر أنه وجد بناء خارج السور، عدا الخيام.

– ولكني رأيته من قبل.

– لا تأمن الخلاء، فإنه عالمٌ ثانٍ، به أيضاً كائنات أخرى تحب أن تعبث مع البشر.

قبل أن أصل إلى المعتقل لم أكن لأؤمن بما آمن به. طالما اعتقدت أنها مجرد ظواهر طبيعية، وأن خيال الناس الذي يميل للخرافة، وصنع الأشياء التي يخافونها ومن ثم يعبدونها، هو الذي يجعلهم يؤمنون بها.

كنا قد وصلنا إلى البوابة الجنوبية، وعبرنا دون أن أُظهر التصريح، وتغامز الحارسان مع الصبائحي، وتبادلا كلمات قصيرة، لم أفهمها ولكني حدست أن لها علاقة بالحانة، وهكذا وجدتني بعد مسافة أقف أمام السلمي، بعد غياب شعرت أنه امتد لسنوات طويلة، وهو الذي لم يتجاوز أياماً معدودة، عانقته بطريقة أحسن من التي يقوم بها الصبائحي، ودخلت قبله إلى الدكان، وطلبت بلغة عربية مكسّرة الشاي، وعندما التفتُّ إليهما وجدتهما يقهقهان ويطلبان مني أن أواصل التكلم بالعربية، ورفضت لأني بدوت مثل مهرج، لصعوبة نطق بعض الحروف. جلس مرافقي قربي، بينما دخل السلمي وعاد بالشاي، وقبل أن أرشف من الكأس تذكّرت سيارة البريد. رفعت رأسي إليه:

– لقد وصل بريد قادم من قنصلية الدار البيضاء إلى إدارة المعتقل!

– هذا خبر جيد. السيد ميشيل أيضاً وصله بريد من الدار البيضاء.

– أهذا صحيح؟!

– أجل.

قال ذلك وقام وفتح الدرج، سحب منه رسالة وسلّمني إياها.

كُتب العنوان بوضوح من الدار البيضاء، تأملته ونزعت الغلاف بسرعة، ثم أخرجت الورقة وتلوت ما جاء فيها. كتبت لي باتريسيا من هناك تقول إنها وضعت الرسالة في الصندوق، في نفس اليوم الذي أرسل فيه القنصل العريضة التي وكّل محاميه بكتابتها. "درس قضيتك لأيام واستطاع أن يجد عدة ثغرات، واختار التي لا يستطيع أحد أن يدحرها". ومع أن القنصل لم يخبرها بالتفاصيل ولكنه بدا واثقاً أن الخطة ستنجح، وما إن يرى مدير المعتقل العريضة حتى يسمح له بالمغادرة في اليوم التالي.

بدا لي كلامها مبالغاً فيه، أو على الأقل كلام القنصل، لأن الأمر ليس بهذه السهولة، أن يسمح لي مدير معتقل بالرحيل بمجرد أن يطّلع على ورقة من القنصلية. على الأقل سيطلب مهلة حتى يتّصل بالمسؤول عن المعتقلات في الجزائر. ولكن حدس المحامي والقنصل بُني على شخصية المدير، وادّعائه بمعرفة القانون، وعدم استشارة أي أحد في ما يفعل هو الذي يحسم الموقف. وهكذا كانت الأوراق تُنقل بسرعة إلى الإدارة، ومن ثم إلى مكتب السيد كابوش.

نظرة الامتنان التي رفعتها تجاه السلمي جعلته يخجل ويطأطئ رأسه إلى الأرض، ثم رفعه وحدق في اتجاه الساحة لثوانٍ، وعاد ينظر إلينا ويطلب أن نشرب الشاي قبل أن يبرد. رشفت قليلاً منه، وفكّرتُ في العريضة التي أعدّها المحامي والأشياء التي كتبها. حاولت أن أتذكّر الأحداث التي مرّت، والتي لها سبب مباشر في أخذي إلى فارني، ثم فجأةً تذكّرت سؤال المحقق عن المؤتمر الشيوعي الذي عُقد بعد الحرب بعام، وربما أيضاً عن الشكوى المجهولة التي

وصلت إلى وزارة الخارجية الفرنسية أثناء مقامي في باريس. أذكر أنني ضججت يومها بسبب التهم الغريبة التي أراد الضابط إلصاقها بي، ولكنه، دون أن يواصل التحقيق، طلب منهم أن يرموني في الحجز لنقلي بعد أيام إلى فارني.

قرأ السلمي في وجهي جميع الأسئلة، وحرّك طربوشه. اعتقدت أنه سيُخرج منه شيئاً، وحين اكتشف أنه يعدّله فقط ابتسمت، وأخذت رشفةً أخرى من الشاي، وطالعت الطربوش ثانيةً، مما جعله ينزعه ويضعه على رأسي:

- تستطيع أخذه إن أعجبك.

اضطربت وأنا أراه دون طربوش، قبل أن أكتشف أنه فوق رأسي، وأنني أصبحت أمتلك صندوق العجائب الذي يُبهر به السلمي المدينة ويجعل جميع قصصها وأسرارها تخضع له. طلبت منه أخذه دون أن ألمسه بيدي، خشيت أن تنتقل قصص أخرى إلي، أنا الذي كنت مثقلاً أكثر من أن أحمل أي شيء معي، غير الذي حملته من هواجس لا أعتقد أن العمر يستطيل وأنساها. نزعه من على رأسي، وعدّله فوق رأسه، وعاد مثلما كان دائماً مليئاً بالأعاجيب.

ودّعت السلمي، وطلبت من الصبائحي أن يرافقني إلى المعتقل. شعرت بالخوف من عبور الجسر وحيداً، ولم أستطع أن أبوح له وأن أقول إنني أخشى أن أرى السلمي وهو يجرّ التوابيت ويرميها أسفل الجرف، وأن أرى بابلو والكلاب تركض خلفه. اشتقت إلى كوخي الصغير، وكتابي الذي هجرته منذ أيام ولم أقرأ منه أي سطر، وعندما وقفنا عند بوابة المعتقل ودّعني مرافقي، ورأيته من بعيد يتّخذ طريقاً

أخرى للعودة، غير التي تمرّ بالجسر، انعطف باتجاه المجحودة ثم غاب داخل المدى السهبي الموحش، وعبرت أنا البوابة. وجدت مجموعة من الإسبان مجتمعين في كوخي، وكأنهم ينتظرونني، ومع دخولي عرفت أنهم سمعوا إشاعةً تقول إن اللجنة الإنجليزية ستأتي خلال أسبوع أو اثنين، وعليها هذه المرة أن تأخذهم معها مهما كان الثمن.

أولئك الذين ظلت عيونهم لأكثر من سنة تتعلق بالسيارات القادمة، وترى في الوهم أملاً يتمسّكون به، ولا يصدّقون من يقول لهم: "انتبهوا، إن أحداً لن يتذكّركم"، اجتمعوا اليوم، يريدون أن يجبروا اللجنة الإنجليزية أن تأخذهم. لم أعرف بمَ أجيبهم، أأنا معهم أم ضدهم؟ وقررت اليوم أن أقول لهم الحقيقة. انتظرتهم حتى تكلّموا جميعا، ثم قلت:

– ليس عليكم أن تتحدّوا غرافال وحراسه. إنه لن يرحمكم. هو يصلّي في سره من أجل أن تتمرّدوا، أو أن يحاول أحدكم الفرار من أجل أن يصطاده مثل أرنب.

ولكنهم لم يصدقوني، أنا مدلّل السيد كابوش والطبيب، طالما رأوني هكذا. ضجّوا في وجهي، وخرجوا وهم يلعنونني، ولم يودّ أحد أن يحيّيني بعدها، ما عدا العجوز والفتية الإسبان، لأنهم عرفوا أنني لا أريد أن يتأذّى أحدٌ منهم بسبب قراراتهم المتسرعة، التي اعتقدت أنهم سيتخلون عنها، ولكنهم بعد أيام أثبتوا لي العكس، حين كانت سيارة اللجنة الإنجليزية تدخل عبر بوابة المعتقل وتتوقف عند باب الإدارة.

١٦

بعد أسبوع من وصول البريد إلى المعتقل، وقف الحارس أمام العيادة وطلب مني مرافقته إلى مكتب السيد كابوش، وفي المسافة التي فصلت العيادة عن الإدارة لم أفكّر إلا في ردة فعل المدير وهو يطالع العريضة، أتراه سيصدق ما جاء فيها، أم سينظر إليها على أنه مجرد مزحة؟ لم أجرؤ على التكهن، شعرت أن الأمر أكثر جديةً من أن أفكّر فيه في مسافة قصيرة. وددت لو سألت الحارس إن كان يعرف أي شيء، نظرت إليه وكأنني أرجو تفسيراً، ولكنه لم يعبأ لنظرتي وهو يمرّ عبر رواق الإدارة، ثم وهو يطرق باب المدير ويأمرني بالدخول، ليبقى منتظراً بالخارج، وأتجاوز العتبة وحيداً. وجدته وقد جلس خلف المكتب، ووضع البريد أمامه، وبدا وكأنه قد استغرق بالفعل أياماً وهو يطالعه.

طلب مني الجلوس، وتفحّصني قليلاً قبل أن يسألني:

– ما زلت تخفي أصدقاءَ مهمّين سيد مانويل؟!

– لا أعتقد أنه تبقّى منهم أحد.

– لا. لقد تذكّروك بالفعل، وأوراقك بين يدي الآن.

وددت لو يسمح لي أن أطّلع على الوثيقة التي صحبتني من المخفر

الفرنسي إلى فارني، شعرت أنها هي التي ستحدّد إن كنت سأرحل من هنا أم لا. رفعت رأسي إليه وطلبت منه أن أرى الوثيقة. لم يفاجئه طلبي:

- هل شاركت بالفعل في المؤتمر الشيوعي؟

- نعم، ولكنه ليس تهمة.

- أتفق معك. إن حربكم لا تعنينا. والشكوى التي أُرسلت؟!

- من الذي أرسلها؟

- من مجهول.

- هذه أيضاً، يا سيدي المدير، غير مبررة.

- أتفق معك هنا أيضاً، فلا يمكن سجن شخص بسبب شكوى من مجهول.

في طريقي إليه لم أفكّر أنه سيكون بهذا اللين، وهو يناقش معي أموراً قانونية، ولكن مع ذلك لاحظت نظرة الريبة التي يحيط بها الأوراق، مع أنها سليمة ويستطيع التأكد منها، ولم يفعل لشيءٍ في نفسه، لا أدري أتكهّنه المحامي أو القنصل. لم يتصل بأحد من المسؤولين في الجزائر، ولا في أي مكان، وبقيت الأوراق في مكتبه ولم تغادره لأيام بعدها. وقبل أن أغادر المكتب نظر إليّ، وحدست أنه يريد معرفة تفاصيل ما حدث في الدار البيضاء، وما الذي جعل القنصل يرسل إليه عريضة تثبت براءة معتقلٍ لديه. لم يشعر أنه ذو أهمية كبيرة، إذ كان مجرد مدرّس، ويطلب تحريره بسرعة ليلتحق بالقنصلية. أراد أن يفهم سرّ العلاقة التي جعلتني بهذه الأهمية، ولمّا أعياه التفكير أمر الحارس أن يعيدني إلى العيادة.

لم أستوعب جدوى المقابلة، وفي العيادة سألني الطبيب عمّا حدث،

وحين أخبرته بدا أيضاً مستغرباً، ولكنه لمّح لي أنني سأخرج من هنا قريباً، وأنه لن يدعني أفعل ذلك إلا بعد أن أنهي ما بدأته، وأن أستمر في رسم الطريق الذي بدأ من سيّيرا وسينتهي في بلد المنفى.

لم أفكّر في أن أخلف الوعد، وكل شيء بدأ في الانحدار، والقصة التي بدأت كتابتها منذ أن دخلت العيادة هي أيضاً أوشكت على النهاية. عندما فكّر السلمي في التخلي عن طربوشه، وأنا الذي لم أتوقّع أن يفعلها، تذكّرته وفكرت أن أطلب الإذن بمغادرة المعتقل والنزول إلى جلفا، من أجل زيارته. كتبت طلباً وأرسلته مع الحارس إلى المدير. لحظات ثم عاد به ممضيّاً. لم أتوقّع أنه سيوافق، لأن الامتيازات التي أخذتها منه لم يكن من السهل أن يُحصّلها معتقلٌ آخر، وتذكّرت نظرة الإسبان إلي، مجرّد كلب مدلّل عند المدير، ومع ذلك لم أحمل الضغينة لأحد. حملت التصريح في جيبي وودّعت الطبيب، ونزلت إلى جلفا، إلى السلمي. وجدته جالساً مثلما اعتاد، ولم يستطع أن يجلس معي طويلاً، بدا متعباً وكأنه لم ينم لأيام طويلة. ابتسم وهو يسمع أخباري الجديدة، ثم وهو يودّعني، وقبل أن أنعطف مع الشارع ناداني شخص باسمي. التفتُّ فوجدت شاباً لم أعرفه يضع في يدي آلة تصوير فوتوغرافية. نظرتُ إليه متسائلاً، ولكنه ابتعد عن الطريق، ورأيت السلمي يلوح من بعيد، ثم دخل إلى دكانه. حدست بأني لن أراه ثانيةً، وأسرعت تجاهه إلى أن لحقت به إلى داخل الدكان، وعانقته طويلاً، ثم ودّعته وكنت أعرف أنه لا يحب الوداع، وعدت مسرعاً إلى "عين الأسرار".

جلست خلف الآلة الكاتبة مبكراً، ليس مثلما اعتدت، وقررت أن

أكتب كل شيء دفعةً واحدة، وأن أضع اليوم نهايةً للطريق الطويلة التي لا تريد أن تنتهي. فيديليو قرّر أن يمنحني الخلاص بطريقته العجيبة، والمدير شخصٌ يثق في قدراته كممثل للقانون في المعتقل، والطبيب الطيب يحب أن يقرأ السير الإنسانية، بالتأكيد لم يكن مثل كورسكي، لأنه ولد باحثاً عن سيرةٍ ربانية، ليجعلها نموذجاً يُقتدى به، والسلمي يشقّ رحلةً لاكتشاف الخط الفاصل ما بين الموت والحياة، أو الفاصل بين المكان والمنفى، وبابلو العنيد، ربما أصبح حفاراً للقبور في المجحودة، أو حارساً للمارابو. وأنا كيف يمكنني أن أكمل ما بدأت؟

تساءلت في غياب الطبيب، ولكني قررت أن أكتب بطريقتي المعتادة: أغمض عيني وأدع الحمّى هي التي تقود أصابعي إلى الحروف. وضعت الأوراق داخل الآلة، وأغمضت عينَيّ، وتركت لها العنان. انتفضتْ في البداية ثم شرعت الطقطقات تتصاعد. لا أفتح عينَيّ إلا لأضيف أوراقاً جديدة. وعندما زالت الحمّى اكتشفتُ أن السيرة الإنسانية التي نذرت لها نفسي هذا المساء قد انتهت، وأني في حلٍّ من وعد الطبيب. تركت له كومة الأوراق فوق المكتب، وغادرت إلى كوخي، بعد أن أظلمت.

في صباح اليوم الثاني وجدت الطبيب منهمكاً في القراءة، ولأكثر من ساعة لم يكلّمني فيها، أعاد قراءة الصفحات التي كتبتها بالأمس، ثم رفع رأسه تجاهي:

– أرى أنك كتبت الكثير بالأمس.

– أجل، لقد بدأت الكتابة مبكراً.

– إذن انتهى الآن كل شيء.

– لا تنتهي القصص إلا بانتهائنا، قلت ذلك مبتسماً.

نظر إليّ متفحصاً ثم سألني:

– ألا تعتقد أنك نسيت شيئاً هنا بالأمس؟

– لا أظن، لقد كتبت كل شيء.

– لا أتكلّم عن الكتابة، بل عن شيءٍ أخطر.

ثم سحب آلة التصوير من الدرج، ونظر نحوي متعجباً.

– إنها هدية من صديق. وأرجو أن تتوسّط لي من أجل التقاط صور في المعتقل.

– إنه طلب صعب، ولكن سأحاول.

في المساء سلّمني الطبيب تصريحاً يسمح لي بالتقاط صور داخل المعتقل، ولكن شرط أن تشرف الإدارة على التحميض، وحتى على انتقاء الصور التي ستبقى معي، أرادت أن تتحكّم في كل التفاصيل، ووافقت برضا، وقلت "أحسن من لا شيء"، وحملت التصريح والآلة، وسجّلت في ورقة المناظر والأشخاص الذين اخترتهم، قبل أن أتجه شرقاً إلى المجحودة، أردت أن تكون أول صورة لها، ووددت أن أرى بابلو هناك، ثم عدت إلى الكوخ، وفاجأت العجوز والإسبان الثلاثة بصورة بينما كانوا يلعبون دور دومينو، ثم سرت إلى البقية، وجعلت أختار مجموعةً وآخذ صورةً معها، إلى أن انتهى الشريط، ووضعت آخر، أغلبه مع الحراس العرب، والتقطت صورتين في العيادة مع الطبيب بيير، وهكذا انتهى الشريط الثاني. وضعتهما في مغلف سلّمته للطبيب، الذي أرسلهما بواسطة الحارس إلى المدير.

كنت قد نسيت اللجنة الإنجليزية، وعندما رأيت السيارة تتجه إلى

الربوة فكّرتُ في آلاف الاحتمالات، وأنا أراقب التجمّع المريب للمعتقلين. لم يكن الإسبان فقط هناك، واستنتجت أنهم اجتمعوا مثلما اجتمعنا. ثم توقفت السيارة عند باب الإدارة ونزل منها ممثلو القنصل، وفجأةً نزل القنصل أيضاً من السيارة، لم أكن لأعرفه، ولكن بيير تفاجأ وهو يراه، ونحن واقفان عند باب العيادة، نوزّع أعيننا ما بين تجمّع المعتقلين والاستقبال الحار الذي أعدّه المدير للقنصل. دخلوا جميعاً إلى مكتبه، ماعدا غرافال الذي انتبه لما يحدث في الساحة. سار تجاههم وطلب إليهم أن يتفرقوا، ولكنهم رفضوا، وكرّر طلبه قبل أن يطلب من الحراس أن يحيطوا بهم. ولدقائق قضاها القنصل بالداخل، امتد إليه الصراخ. خرج برفقة المدير والممثلين، وذهلوا وهم يرون الجميع وفي مقدمتهم الإسبان، كانوا يصرخون ويطلبون من القنصل أخذهم معه، ولكنه صعد إلى السيارة وغادرت بصعوبة من بينهم، وغادر في إثرهم المدير، وبقيت أراقب ماذا سيفعل غرافال بهم. اشتد غضبه على الحراس العرب وأمرهم بأن يلتحقوا بمن سبقهم من الفرنسيين، وأن يتقدموهم بمواجهتهم، ثم صرخ أن يفصلوا الإسبان مثيري المشاكل عن الجمع، ولكنهم لم ينفصلوا وظلوا يصرخون وينادون على القنصل الذي غابت سيارته في الأسفل. إلى هنا بدا الأمر عادياً، ولكن بعد لحظات ازداد حنق غرافال، نظر إليهم وكأنه يريد أن يقول لهم: "أنتم اضطررتموني لذلك"، وصرخ بالحراس العرب أن يصوّبوا أسلحتهم تجاه المحتجين، فصوّبوها مهدّدين كي يوقفوا تقدمهم، ثم أمرهم بإطلاق النار، وما إن سمعت أمره حتى فزعت وأوشكت على السقوط، ماذا يريد أن يفعل هذا المجنون، وهو يطلب منهم أن يقتلوا أكثر من

مائة شخص؟ كرّر صراخه على الحراس العرب، وهنا سمعت صوتاً آخر يرتفع ويطلب إليهم أن يخفضوا أسلحتهم، وظهر الصبائحي على فرسه، ثم نزل وهو يعبر البوابة، ونظر إلى أصدقائه من الحراس نظرة عتاب، ولكنها كانت أكثر قسوةً وهو يرفعها تجاه غرافال:

- ليس نحن من يرفع السلاح في وجه الأسير يا سيد غرافال.

ازداد حنقه وهو يسمع عبارات التحدي منه، وتقدم منه، لكنه لم يجرؤ أن يرفع يده أو أن يقوم بأي حركة. أوقفته نظرة الصبائحي القاسية وجعلته يكرّر نفس الكلمات: "افصلوا الإسبان... افصلوا الإسبان". وفي لحظات هدأت الثورة وتفرّق الجمع، ولكن الحراس قادوا مجموعة الإسبان الثائرين إلى كافارولي. رأيتهم ينحدرون وتنهّدت الصعداء لكون الأمر بلغ هذا الحدّ ولم يجاوزه، لكنت الآن أعدّ الجثث، وربما لخرجت من جلفا كحفار للقبور.

ما فعله الصبائحي ذلك اليوم جعلني أفكّر كثيراً في الله، أنا الذي كنت في قطيعة مع الدين. لم أستوعب كيف أمكن له أن يحمل ذلك المقدار من الإيمان، وكل الأشياء التي تحيط به لا تعطيه أي مبرّر لوجوده، على الأقل ليصحّح الأخطاء التي يرتكبها البشر باسمه، ثم فجأةً يصرخ عليهم أن ينزلوا أسلحتهم، لأن الله لا يوافق على قتل الأسير. عن أي إله كان يتكلم؟!

أجزم أنه ليس الذي يؤمن به غرافال أو السيد كابوش، ولن يعرفه أحد من الذين أوشكوا أن يُقتلوا يومها، ولكنهم مثلي سيفكّرون في هذا الإله الطيب الذي وقف بينهم وبين الرصاص ومنعه أن يخرج من فوهات البنادق. الطبيب أيضاً دُهش لتصرّف رئيس الحرس، وتخيّله

شخصاً آخر، لم يعتقد أن ينحو هذا المنحى، ولكنه استوعبه أكثر مني، وأنا الذي لم أستطع تجاوز الحادثة، حتى بعد سنوات بعيدة، استيقظتُ فجأةً، وكأنني رأيت حلماً امتد لأكثر من سبعين سنة.

وقفت على الربوة أراقب الطريق التي تؤدي إلى كافارولي، وتذكّرت الثوار الذين ساروا بهم إلى هناك، وقلت: "لن يسمحوا لهم بإشعال النار"، وأوشكت أن أسأل الطبيب إن صاروا يسمحون بها، أم أن القوانين لم تتغير، ولكني صمتُّ عندما رأيته يدخل متعباً، وكأنه عائدٌ من سفرٍ طويل، وضع المحفظة وانهار على الكرسي، ولم يتكلم إلا بعد أن دخّن ثلاث سجائر:

– اللعنة على المعتقلات. لم يعد مبرراً كل ما يحدث. يجب أن أرحل من هنا. أشعر أنني أشيخ هنا يوماً بعد يوم. يجب أن أرحل يا مانويل.

لم أعرف كيف تحول موقفه هكذا، شككتُ أن للأمر علاقة بما حدث قبل أيام، ولكنه لم يصرّح لي، كما لم يحتج إلى تصريح. كل شيء واضح إلا للذي لا يريد أن يراه. هذه السهوب الموحشة تقتلنا كل يوم، بعيداً عن أوروبا، ويجب أن نرحل مبتعدين عنها، وجميع الأسئلة التي طرحتها في يوم ما، على نفسي حول الطبيب، بدأت تتجسّد اليوم أمامي، وخشيت أنً ينحدر قبل أن يحقق حلمه هو أيضاً. صار كل شيء ممكناً هنا، ولا قوانين تحدّد الحياة بالنسبة للبشر. وهكذا ودّعتُ الطبيب وحملت نفسي إلى الكوخ مبكراً.

عندما بدأت الظلمة في الانتشار، وعبقت رائحة الخشب المحترق بين الأكواخ، وقف عند الباب. وعندما سمعته ينادي باسمي خرجتُ

إليه، وتفاجأت بالحارس يطالعني ويطلب إليّ السير معه إلى مكتب المدير، فقد كان الوقت متأخراً، والدوام انتهى منذ ساعات، ولأني لم أرَ سيارة المدير تغادر المعتقل. ارتديت معطفي وانضممت إليه. ترافقنا حتى بلغنا الإدارة، وقد خلت من الموظفين، ثم تجاوزنا الرواق حتى وقفت أمام مكتب المدير، وقبل أن أطرق الباب فتحه، دخلت بتثاقل.

لم تغادرني نظرة الريبة وأنا أسير مع الحارس، والهواجس التي تقول إن غرافال قد اكتشف خطتي، بعد أن اطّلع على الوثائق، وأرسل الحارس ليقودني إلى الكمين. كتمت خوفي إلى أن بلغت الإدارة، أما وأنا أقف عند باب المدير فقد زالت كل الهواجس وتأكدت أنه لم يحدث شيء مما فكرت به. جلست قباله، وهو يتأملني دون كلمات، ويعبث بقلمٍ فضي بين أصابعه. لأكثر من نصف ساعة بقينا هكذا، ولم أجرؤ على سؤاله، وهو يطالعني بالنظرة الغريبة التي لم أتكهن منها أي شعور. ثم عدّل نفسه على الكرسي ونظر تجاهي:

– فيمَ تفكر يا سيد مانويل في هذه اللحظة؟

– في سييرا دي مويرتي.

– ولماذا؟

– ربما لأنها الخيبة الأولى.

– وهل هناك خيبات أخرى؟

– أجل، ولكنها ليست بالقسوة نفسها.

– و"عين الأسرار"، ألا تعتقد أنها أيضاً قاسية؟

– أجل، رأيتها أشد قسوةً من سيّيرا في وجه بابلو والذين سرتم بهم إلى كافارولي.

– غداً سيعودون، لا تهتم لأمرهم.

– هذا جيد.

– ألا تريد المغادرة من هنا يا مانويل؟

– أتصدقني لو قلت لك إن روحي التي تنشد الرحيل تأسف وهي تعلم أنها ستضيع في العالم، غير قادرة على دخول إسبانيا.

صمت لحظتها السيد كابوش، مفكّراً في جملتي الأخيرة، وسحب الأوراق التي أمامه، أمضاها بسرعة، وأخرج من درج المكتب ظرفاً سلّمه لي، حينما فتحته تفاجأت بالصور فيه، ثم أردف:

– لقد احتفظتُ بالتي أخذتها مع الحراس والجنود.

ثم وقف وسلّمني ظرفاً أصغر حجماً وقال:

– سعدت بالتعرف عليك سيد مانويل. لا أريد أن أراك هنا غداً صباحا.

حدث كل شيء فجأةً، ولم أستوعبه إلا وأنا في الكوخ. وعلى ضوء المصباح الزيتي تأملت الصور، وقرأت التصريح آلاف المرات. لم أصدق ما جاء فيه، والطريقة التي افتعلها المدير وهو يودّعني. تأكدتُ من حدس المحامي، وحدست أن الخطة ستفشل إذا ما اتّصل المدير بالمسؤولين في الجزائر أو فيشي. وهكذا حزمت أمتعتي، وانتظرت الفجر بعينين لم تعرفا النوم.

لم يكن مجدياً أن أودّع أحداً، شعرت أنني ارتكبت مؤامرة اشتركت فيها مع المدير، وسحبت نفسي حتى البوابة. رآني الحراس ولوّحوا الي بأيديهم مثلما اعتادوا أن يفعلوا أيام الآحاد، وانحدرت مع ضوء الفجر البنفسجي، وقد وزّع سحره على المدى الواسع، الذي ازداد وحشةً

مع رحيلي، وإلى أن عبرت الجسر لم ألتفت، ولكني عندما تأكدت أن الخطوات صارت معدودة على بوابة المدينة التفتُّ إلى المعتقل، وارتفعت ربوة "عين الأسرار"، شامخةً في وجه الريح، غير عابئة بأحد، غيري أنا وبابلو الوحيدين اللذين خلقا الاستثناء وخرجا من المعتقل بطريقةٍ مختلفة.

تجاوزت بوابة المدينة في لحظات، وسرت عبر شارع "بوا دو جيلبار" حتى بلغت ثكنة الخيالة، ورأيت الصبائحي يسحب لجام فرسه، وبدا لي يومها مثل نبيٍّ قدم من باديةٍ قديمة كي يوقف انهمار الدماء في المدن العارية. اقتربت منه وودّعته بعناقٍ طويل، وبحثت عن سيارة تقلّني إلى الجزائر، وبعد ساعة كنت أطلّ من خلف مرآتها على بوابة المدينة.

بدت جلفا من بعيد مثل حلم حدث ذات ليلة قديمة، أو آية يديشية نحتها كورسكي على قبري، الذي قدّرتُ أن بابلو قفز من فوق الأسلاك الشائكة من أجل أن يحفره في "المجحودة"، والسلمي سيحملني مثل المنفى في التابوت ويرميني في الوادي، وسيكون رحيماً مثل البحر ويناغيني حتى أبلغ المقبرة، وحين أعود أكتب السيرة الإنسانية التي طلبها الطبيب، وسيكون شاهداً أيضاً عندما يسألونه: هل كان بالفعل الصبائحي أحمد ذلك اليوم نبياً أم لا؟

سيجيب بالصدق، ولكنه سيطلب منهم أيضاً أن يسألوا مانويل، وتبدأ الأفواه في نطق اسمي: مانويل مانويل... ولن أكون هناك، لأنني أقف على ظهر الباخرة التي تعبر الأطلنطي، أنا وزوجتي باتريسيا نرحل إلى المكسيك، نضيع من أجل الحصول على وطنٍ بديل عن إسبانيا.

‘نصٌّ جميل ومتميِّز وجدير بالقراءة’

القدس العربي

‘سعدتُ بميلاد روائي مميز خارج ضجيج طواحين الهواء.’

واسيني الأعرج

مانويل وبابلو وكورسكي، ثلاثة رجال جمعتهم المحنة. فبعد انتصار الجنرال فرانكو في الحرب الأهلية الإسبانية، يتمّ ‘شحنهم’ مع بعض الأسرى الأمميين من معتقل ‘فارني داريياج’ في ‘سييرا دي مويرتي’ إلى معتقل ‘عين الأسرار’ في ‘جلفا’ بالجزائر.

هناك يتعرّف مانويل إلى السلّميّ الذي يُخرج من طربوشه مدناً وشوارعَ وقصصاً، ويستمر في خلق الحكايات والألغاز إلى نهاية الكون. ويلتقي كورسكي، اليهودي البولوني، الرابيَ يعقوب، ليكتشف فيه المعلّم الروحي الذي طالما بحث عنه. وحين تنقطع رسائل ماري يفرّ بابلو من ‘عين الأسرار’ مخلّفاً وراءه طيفه وتساؤلات لا أجوبة لها...

عبد الوهاب عيساوي كاتب وروائي جزائري.

مكتبة نوميديا 40
Telegram@ Numidia_Library

ISBN 978-6-14425-888-0
9 786144 258880 >
DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com